السُّورانيّون

البُناة الأوّلون لنهضة الحلّة

صفحة الناشر

السّـورانيّون

البنـاة الأوّلون لنـهضة الحلّة

جـعـفـر المـهـاجـر

الإهـــــــــــداء

أُهـدي أجرَ هذا الكتاب إلى العالم الجليل الدكتور

حسين علي محفوظ السُّوراني

رحمه الله برحمته الواسعة ، جـزاءً وفـاقـاً لأنّــه كان أوّلَ مَن أوحى لنا بتصنيف هذا الكتاب على أسلافه ، أثناء مُناقشاته المُتعـدّدة معـنا .

الـفـهـــرســـت

المقـــدمـــة

(1)

ترجعُ فكرةُ تصنيف هذا الكتاب إلى لقاءٍ جمعني بالعلاّمة الجليل والصديق الحميم الدكتور حسين علي محفوظ (1345 ــ 1429 هـ / 1926 – 2008 م) في مكتبتي في "بعلبك" . وكثيراً ما كان ، رحمات الله عليه ، يزورني . حين يصطاف بين أقاربه في مدينة "الهرمل" . فيأنسُ إلى مكتبتي ، التي كانت تحتلُّ جانباً من منزلي . يُشرفُ على المدينة أدناه ومُنتزهها الجميل .

وإنْ أنسَ فلا أنسى أنّني سألته يوما ، أثناء أحد الاحاديث اللذيذة معه :" **هل تعلم أن أسلافك هم من العلماء السّريان في "الحلّة ؟** " ففاجأني جوابُه فوراً بـ **"نعم !"** قاطعة . ثم تابعنا الحديث في شجون هذه النتيجة . ومن ذلك أنّه ذكر لي أنّه قد وضع كتاباً على أسلافه ، وهو يعملُ على طبعه . ولكنّ الكتاب العتيد ، كالكثير من مُصنّفاته الثمينة ، لم تلقَ القبولَ الحسن لدى الناشرين . لأنّها ، حسب قوله هو في بعض أحاديثه ، ليست ذات صفة تجاريّة ، بما تنطوي عليه من أبحاثٍ دقيقة ، لا تهمّ إلا أصحاب الاختصاص . لكنّنا نعرفُ من مصادر أُخرى ، أنّ جدّه سميّه الشيخ حسين محفوظ الكاظمي قد كتب على ظهر بعض كُتُبه سلسلة نسبه إلى جدّ الأُسرة الأعلى الشيخ محفوظ بن وشاح السوراوي (أعيان الشيعة : 6 / 124) .

كان من بركة ذلك المجلس أن نبتت لديّ لأوّل مرة فكرةُ وضع كتابٍ على الظّاهرة السوراويّة المُدهشة ، ولكن المجهولة أيضاً . تعزّزت بقوّة أثناء العمل على تاريخ مدينة "الحلّة" ، التي كانت من نتيجتها كتابنا المطبوع (**الحلّة نهضتها ودور العلماء السريان**) . الذي تفضّل بنشره " مركز العلاّمة الحلّي لإحياء تراث حوزة الحلّة العلميّة " .

وهكذا بات من حقّ الدكتور أن نُهدي إليه أجرَ هذا الكتاب .

(2)

تحت عنوان **"تأصيل إشكاليّة البحث"** سنطرح الأسئلة الأساسيّة التي يطرحها البحث . أي ما الذي يجعل ما تحت عنوان الكتاب مُستحقّاً لبذل الجُهد من الكاتب على التعريف بأعلام السورانيين ، كما يدعو القارئَ إلى اقتناء الكتاب ومن ثَمّ إلى قراءته ، إن كان من الذين يقرأون ما يقتنون من الكُتُب . وفي ختام ما تحت العنوان إشارةٌ إلى المنهج الوصفي التركيبي الذي سنتّبعه في البحث .

في الفصل الأوّل ، تحت عنوان **"الهيئة السُكّانيّة للحلّة وهويتها"** سنعمد إلى بيان وتركيب صورة سُكّانيّة للمدينة الجديدة . باعتبارها الحاضنة التي سيعملُ فيه المهاجرون السوراويون . ذلك أنّه إن يكن حضور هؤلاء سيكون محل عنايتنا في الآتي ، فإن وصف التفاعل بين الثّابت / المدينة والمُتحوّل / أعلام السوراويين ، لن يتمّ دون وصف ما سميناه "الهيئة السُكّانيّة للحلّة وهويتها" ، يعني حين دخلها وانضمّ إلى سكانها القادمون من أهلُ بلدة "سورا" المُجاورة لـ "الحلّة" .

في الفصل الثاني ، تحت عنوان **"السورانيّون / السريان"** ، سنعمل على بيان ملابسات نشأة اسم وحِراك هؤلاء . الأمر الذي سيقتضي ، فيما يقتضيه ، التّعريج بمقدار الكفاية على بيان الجانب الجغرافي للمنطقة إجمالاً ، وتأثيرها القويّ على العامل السُكّاني . مع الإلمام بالعامل التاريخي ، بوصفها الوارثة للحضارات العظيمة التي توالت في الماضي على "ما بين النهرين" . وما تركته بالضرورة من تأثيرٍ ثقافيّ عميق مُتقدّم ، حمله معهم المهاجرون السورانيون إلى مهجرهم الجديد. ليتفاعل بقوّة مع الهُويّة المحلّيّة للسُكان الأصليين . التي هي التّشيُّع وفقهه . وكيف دخلت النُّخبة من أولئك المهاجرين بالعشرات إلى ما سمّيناه "السّباق" باتجاه منح المدينة شخصيّتها الخاصّة بها. كما سيحدثُ بالفعل . وبذلك نبدأُ الدخول إلى قلب الحدث الانقلابي العظيم ، الذي منح الفقه الشيعي شخصيّتَه المُسيطرة معنويّاً حتى

اليوم . وهيّأهُ للتطورات القادمة .

في الفصل الثالث . تحت عنوان **"الأعلام السورانيون في الحلّة"** ، (وهو ذروة البحث) . حيث سنعملُ على تقديم أوفى سيرةٍ ممكنة لكلٍّ من أولئك الاعلام . بـدءاً بالرّوّاد الأوائل لنهضتها القادمة . الذين أتوا بحركتهم المُدهشة ، التي ما تزال تُثير عندنا أقصى العجب والإعجاب ، حين يمّموا وجوههم شطر "مشهد علي" ، "النجف" اليوم ، ليدرسوا على شيخه الوحيد أبي علي الحسن الطوسي . ثم ليبدأوا بعد عودتهم منه حركةً دراسيّة عارمة ، جذبت من التلاميذ مَن سيُتابعون السعي بالرّاية إلى الأمام .

من هذا وذاك ستبدأُ "الحلّة" نهضتها العظيمة . بل نقول ، إنّها كانت السبيل الوحيد الذي لا ثاني له إلى ما عملوا عليه ، بكامل الهمّة والبصيرة . ثم انتهاءً بكلّ الذين أتوا من بعدهم ، وظفرنا بما يكفي لتركيب سيرةٍ وافيةٍ لأحدهم . بل أحياناً حتى بما لا يقلُّ عن الاسم ، حين يعزّ التفصيل . لكنّ الجميع يستحقُّون منّا التنويه ، جزاءً وفاقاً لِما ساهموا ، بدرجةٍ أو بأُخرى ، في تلك النهضة (والسّابقون السّابقون أولئك المُقرّبون) .

في هذا الفصل وقعنا على تسعة عشر فقيهاً أو عَلَماً سورانيّاً من الذين نزلوا "الحلّة" . تتفاوت سيرتهم ومواقعهم بين مقام البطولة ، بالمعنى التاريخي للوصف . (البطل) أي الانسان المُغيّر، الذي يترك من بعده أثراً باقيا ، فيُغادرُ عالَماً أفضل ، في موضوع عمله ، من الذي أتى إليه . وبين مَن هو أدنى بتفاوتٍ كبيرٍأو صغير. بل وأحياناً بمَن لسنا نعرفُ عنه وعن سيرته سوى اسمه وصفته السورانيّة أو أكثر قليلا .

(3)

تحت عنوان "نتائج" سنختم الكتاب . حيث نستعرضُ أكثرَ النتائج التي وصل

إليها البحثُ من حيث الأهميّة .

هنا يجبُ علينا أن نقول ما يلي :

إنّ كلَّ ما خُضنا فيه في متن الكتاب هو ذو صفةٍ موضوعيّة كاملة . أي أنّـه هو الذي قادتنا إليه المعلومات المنثورة في مختلف المصادر . أمّا ما أوردناه تحت عـنوان "نتائج" فهو من وُجهة نظر الكاتب . أي أنّـه ، ككلّ وُجهة نظـر ، قابلٌ للنّقاش . وربّ قارئٍ حصيف ، يتمعّن فيما أتى به الكتاب ، سيكتشفُ نتائجَ أُخرى ، لم يلتفت إليها الكاتب . أو أنّ بعض ما اعتبره نتيجة ليس ذا أهميّة بحيث تستحقّ التنويه .

والحمد لله رب العالمين

بعلبك في 5 1 جمادى الاولى 1445 للهجرة

الموافق 29 كانون الاول / نوفمبر 2023 للميلاد

تأصيل إشكاليّة البحث

(1)

هذا الكتاب يطرحُ سؤالاً مُزمناً ، لم نـرَ أحداً من قبلنا قد عالجه ، هو : مَـن ، متى ، أين ، هم أُولئك الذين اصطنعوا لنا حاضرةً علميّةً عاملةً فـذّة من غيرشيء؟

مَـن هم أولئك الذين ابتنوا لنا قصراً مُنيفاً من موادّ بسيطة ، شأنها وحقّها لا يزيد عن أن تُهمَل وتبقى حيث هي ؟ ما نزال من عُمّاره والحمد لله .

بنوا آلةً اجتماعيّةً ــ علميّة مضت تُنجب الأفذاذ من الرجال ، عن غير سابقةٍ لها من نوعها في المكان ، وعن غير أساسٍ لها في تاريخها وتاريخهم .

نقول في الجواب :

أمّا الحاضرة ، القصر ، الآلة ، فما هو إلا أُعجوبة مدينة "الحلّة" . الحاضرةُ التي وُلـدتْ ، وبلغـت عنفوان الشـباب ، وأنجبت الباقيات الصالحات على مستوى الحياة العقليّة ، ثم ماتـت في عـزّ فتوّتها ، دون أن تمُـرّ بحالةَ الشيخوخة . كلُّ ذلك حصل ، ويا للعجب ، أثناء ما لا يزيـدُ إلا قليلاً على نصف قرن من الزمان .

(2)

إبّان عمرها القصير، أنجبت "الحلّة" من أفاضل الرجال وبدائع الأفكار وطرائف المُصنّفات وصنوف الآداب ، ما لا يزال موضع الاتّباع والانتفاع حتى اليوم ، على مستوى الانتشار الشيعي كلّه في الدنيا . وبذلك بات من حقّ رُوّادها أن يُذكروا بما يستحقّون من تنويه .

ذلك لأننا لاحظنا أنّ هاتيك الانجازات لم تُدوّن في سجلّ أولئك الذين بادروا فاصطنعوها . فكأنّ غياب تأصيل تلك الأُعجوبة إلى أربابها ، يُرادُ منه أن يودعُ في نفس غير العارف أنّها هباتٌ مجّانيّةٌ ، هبطت من عليائها بنفسها دون جُهد .

(3)

أمّا البُناة لجسم المدينة البشري ، فما هُم إلا العناصر البشريّة التي التأمت في "الحلّة" ، وساهمت في قسطٍ أو غيره من العمل الإنشائي والبنيوي العالق فيها . مع ضرورة القول منذ الآن ، أعني قبل الغَوص في تفصيلات البحث ، أنّهم جميعاً كانوا من المُهمّشين اجتماعيّاً . أي من الذين يعيشون على هامش المجتمع المأزوم في كلّ "العراق" يومذاك . كمّيّاتٌ بشريّة مُهملَة لاشأن لها ولا حساب .

لكننا نقول أنّ ذلك ربما كان من حُسن حظّها وحظّنا منها . إذ أنّ هؤلاء تُركوا وشأنهم ، يضطربون عاملين على عمارة وطنهم الصعب مادّياً ومعنوياً ، دون أن يكترث بهم أحدٌ من أهل السُّلطة ، بما قد يوجب ويودي إلى قمعهم ، ما دامت بعيدة عن مجال سُلطتهم وبلبالها .

نقول هذا مع ضرورة القول أيضاً ، إنّ الذين يرجعُ إليهم الفضل الأول فيما انتهت إليه من مركزٍ علميّ نشيط ومُنتج وخلاّق ، هم روّادٌ ممّن سمّوا فيما بعد بـ (السريان) . مع أنّهم يُفترَضُ بهم أنّهم غرباء بأكثر من معنى ، عن الحالة البشريّة والثقافيّة التي عملوا ضمنها وعليها .

(4)

إن وظيفة الباحث ، في ظلّ مواصفات هذه الحالة ، أن يُبيّن ، أن يعمل على أن يُسمّي الأشياء بأسمائها . بحيث ينسب الفضل إلى أهله . ابتغاء أن يوقظَ العقول من غفلتها المُزمنة . الأمرُ الذي يوجبُ علينا ، أوّلَ السّعي ، أن نبدأ بأن نُبيّن المجموعة البشريّة التي صنعت أُعجوبة "الحلّة" . مادّياً ببناء المدينة . ثم فكريّاً / عقليّاً بصَرْف أكثر جهدها المدنيّ إلى البناء الفكري .

ولقد كان في وُسع تلك المادّة من البشر ، لو شاءت ، أن تصرفَ كلّ جهدها

إلى البناء المّاديّ للمدينة ، مهما تكُن أسبابه . ثم إلى العيش فيها عيشةً راضية ليس يُكدّرُ صفوها شيء ، ولقد كانت المدينة بمواصفاتها مؤهّلةً لذلك . لكنّنا رأينا بعضَ أهليها ، وياللعجب العُجّاب ، يتخذون خطوةً غريبةً غير متوقّعة ، باتجاه البناء الفكري لمدينتهم . سيكونُ الوقوف عندها وتفصيلُ الكلام عليها موضع الاهتمام الأوّل في الآتي إن شاء الله .

فهذا بيانٌ للحافز والغرض الذي كان وراء اهتمام الباحث بتركيب هذا البحث .

أمّا المنهج الذي سيقود خطواتنا ، فما هو إلا المنهج التركيبي ـ الوصفي ، الذي درجنا عليه في كافّة أبحاثنا . حيث عملنا دائماً على تركيب القصّة من مُفرداتها المنثورة في المصادر . مع الحرص الشديد على الصّفة الوصفيّة للعمل ، بما يتلاءم مع قاعدته البشريّة ومواصفاتها .

الفصل الأول : في الهيئة السُكانيّة لـ "الحلّة" وهُويّتها

(1)

تآزرت في بناء "الحلّة" الصّعب ، على البقعة شبه المُستنقعيّة ، التي يبدو أنّها كانت من قبل من عدّة جُزُر صغيرةٍ مُتقاربة ، معمورةٌ بمَن ينحدرون من مختلف السُكّان الذين عمروا "العراق" في ماضي أيامه ، ــ تآزرت عدّة مجموعاتٍ بشريّة ، يقودها أُمراء من بني مَزيَد . الذين نُرجّحُ أنّهم من أنباط "العراق" . أي من العرب المدينيين الذين تعود أُصولهم إلى أطراف "الشام" : منطقة "الصّفا" البركانيّة ، حيث خُطّت العربيّة لأوّلِ مرّة ، وإلى وادي "الأُردنّ" ، حيث آثارهم البارعة الباقية في"البتراء" ، وإلى بقعة مُلتقى "الشام" بشمال شبه الجزيرة . ومن هذه الأخيرة "تبوك" وسكّانها أصحاب شُعيب "أصحابُ الأيكة" . هؤلاء انتشروا من مواطنهم تلك ، جميعاً أو قسمٌ منهم على الأقلّ ، باتجاه "وادي الرّافدين" ، بسبب الضغوط السّكانيّة والعسكريّة عليهم من الدولة الرّوميّة الجبّارة . ثم عادوا فانتشروا ثانيةً من "وادي الرافدين" باتجاه أنحاء "شبه الجزيرة العربيّة" . ومن هؤلاء قبيلة قريش في "مكة" ، وقوم صالح صاحبُ النّاقة في مدينة "الحجر" ، المعروفة اليوم محلّيّاً باسم "مدائن صالح".

(2)

ممّا لا ريب فيه ، أنّ الفضل الأوّلَ في بناء "الحلّة" في ذلك الوسط الصّعب ، يرجع إلى الذّكاء السياسي ــ الاجتماعي لبني مزيَد ، ومرجعه إلى إرثهم النبطي التمديني ، الذي رأينا مثله لأنباطٍ مثلهم في بناء مدينتي "الحجر" و "مكة" ، وغيرهما من قبل . وبذلك نجحوا في أن يُقدّموا للناس من حولهم أُنموذجاً مدنيّاً راقياً . في

مقابل الأنموذج التركي العسكريتاري الشّـرس الذي كان يبسطُ سُلطانه على ما يُعرَف اليوم باسم "العراق" ، ونزاعات أربابه التي لاتنتهي على الإمساك بالسُلطة والنّهب ، على حساب هناءة عيش الناس .

عن طريق ذكائهم السياسي وسلوكهم التمديني الميّال إلى الدّعة والسّلام ، نجح المزيديون في جـذْب قبيلة بني أسد ، التي كانت وما تزال تنزل البقاع المُسامتة لمجرى نهر الفرات بعد "الكوفة" ، حيث كانت اكبرَ قبائل المنطقـة عديداً وأقواها نفوذاً ، ــ جذبوهم إلى مشروعهم التمديني العالق . ومن ثَمّ تآزر الجميع على بناء المدينة مادّيّاً. مع ضرورة مُلاحظة ، أنّها المدينة العراقيّة الوحيدة التي بُنيت في الطّور الإسلامي لـ "العراق" بقرارٍ وعملٍ شعبي . في حين أنّ كل ما سواها من المُدُن : "الكوفة" و"البصرة" و"بغداد" و"واسط" و"سامرا" ، إنّما بُنيت بقرارٍ وعملٍ سُلطوي . وشتّان ما بين هذا وذاك ، سواءٌ من حيث معنى ومردود البناء بالنسبة للسكان ، أم من حيث الوظيفة الملحوظة للمدينة في ذهن بُناتها .

(3)

ثم كان بنو خفاجة من الذين جذبهم المشروع العتيد أيضاً . وهم قبيلةٌ كبيرة العدد . ماتزال منازلُها في أنحاء "شبه الجزيرة العربيّة" وفي "العراق" . منسوبةٌ في بعض كُتُب الانساب إلى من يسمّونه "خفاجة" ، الذي لسنا نجدُ له ذكراً في كُتُب التاريخ إلا بهذه المناسبة ، الأمرُ الذي يبعثُ شكّاً قويّاً على أصل وجوده . في حين أنّ "خفاجة" أو "خفاجي" هو اسمٌ لمدينةٍ بابليّة . ما تزال على اسمها نفسه في محافظة "ديالى" شمال شرق "بغداد" .

فهل هذا التشابه في اسمَي القبيلة والمدينة مُجرّد صدفة ؟ أم أنّ جذوربني خفاجة القبيلة تضرب عميقاً إلى أُصولٍ بابليّة ؟

مهما يكُن، فإنّ خفاجة كانت ممّن جذبتهم الخطوة التمدينيّة غير المسبوقة في

المنطقة . بما تنطوي عليه من أنموذج جديدٍ كلّ الجِدّة ، كانت هي تفتقرُ إليه بشدّة .

(4)

ثم ممّا لا ريب فيه أيضاً ، أنّ الأُنموذج نفسه قد تابعَ فجذب إليه أيضاً الأكراد الجاوانيين ، الذين كانوا ينزلون بقعةً على شاطئ دجلة غربي "بغداد" . فسارعوا طوعاً إلى الانضمام إلى سكان المدينة الجديدة .

ومن المعلوم أن الأكراد عانوا ويُعانون من أزمةٍ مُزمنة ، هي الحنين إلى وطنهم التاريخي المُمزّق الفقيد . فلا عجب في أن رأوا في الأُنموذج الجديد ما قد يبلُّ أشواقهم إلى وطنٍ يعيشون فيه بسلام . فانضمّوا إليه بما يمتازون به من شدّة المِراس . وبذلك غدوا ، بالإضافة إلى بني خفاجة ، عماد االقوّة المُقاتلة ، الموكل إليها حماية المدينة الناشئة ، التي منحتهم فرصةً طالما تلهّفوا إلى مثلها ، بوطنٍ يعيشون فيه بدّعةٍ وسلام ، في االوسط العسكريتاريي المُدلهمّ الذي يُحيط بها .

هكذا تشكّلت "الحلّة" سُكّانيّاً من أربعة عناصر سُكّانيّة أساسيّة : العنصر القيادي السياسي المُتمثّل ببني مزيد . والعنصر البشري الغالب من بني أسد . والعنصران الثانويان الأقلّويّان نسبيّاً والقويّان عسكريّاً من بني خفاجة والأكراد الجاوانيين . وهي تركيبةٌ أنموذجيّةٌ لمدينةٍ ناشئة ، لاتبتغي أكثر من العيش بسلام في الوسط المسكون بالعنف من حولها .

(5)

يبقى أن نتساءل عن هُويّة عناصر هذه التركيبة البشريّة للمدينة .

هذا التساؤل يطرحُ همّاً خفياً ، أبعدُ من الهُويّة النّسَبيّة ــ التاريخانيّة لكلٍّ من العناصر التي التأمت في "الحلّة" وصنعتها بشريّاً . يدورُ على الهُويّة من حيث المذهب لتلك العناصر البشريّة الثلاثة .

ثم أنّ السؤال الخفيّ نفسه يأولُ إلى سؤالٍ ثانٍ ، أكبر وأكثر أهميّةً هو:

كيف تأتّى للمدينة الجديدة ، بما تنطوي عليه من خليطٍ بشري بالغ التنوّع بشريّاً ومذهبيّاً ، أن تدخلَ التاريخ بوصفها شيعيّةً بامتياز ؟

مُسوّغ السؤال ، أنّنا لسنا نعرف مذهب الأسرة المزيديّة ، صاحبة الفضل الأول في تمصير المدينة . بل ونقول إنه ليس في تاريخها السابق ما قد يدلُّ أو يُفهمُ منه أنّها كانت شيعيّة المذهب ، أو أنّها تميلُ إلى التّشيّع بمعنىً أو بغيره .

كلّ مانعرفه عنهم أنّهم كانوا في منزليهما السابقيَن،قريتَي"النيل" و"المزيديّة" ، أي قبل تمصيرهم "الحلّة" ، حيث اكتسبوا عن كامل الاستحقاق صفة "أمير"، ــ كانوا يتمتّعون بقسطٍ من المكانة لدى أرباب الدولة في "بغداد" . بحيث منحتهم ألقاباً من نمط الألقاب الفارغة ، التي كانت السُلطة المركزيّة في العاصمة تمنحها لصغار صنائعها : "سندُ الدولة" ، "نور الدولة" ، "بهاء الدولة". نظراً لما كان لهم من موقعٍ اجتماعيّ فقط . الأمرُ الذي قد يُفهمُ منه أنهم لم يكونوا من المعروفين بالتّشيُّع . لِما نعرفه أنّ هذا النّمط من الألقاب التّشريفيّة ، على هوانه ، كان محجوباً عن الشيعة .

أمّا الأكراد الجاوانيون ، فما من ريبٍ إطلاقاً في أنّهم كانوا شافعيّي المذهب في موطنهم السابق المعروف لدينا .

وأمّا بنو خفاجة ، فليس لدينا أدنى فكرة عن مذهبهم قبل اندماجهم في الهيئة السُكانيّة للمدينة . الأمر الوحيد المؤكّد ، أنّنا لا نعرفُ لهم أيَّ حضور في التشيّع من قبل . الأمر الي يدعونا إلى الترجيح بأنّهم أيضاً لم يكونوا شيعة .

(6)

وحدهم بنو أسد كانوا ، في كلّ ما نعرفه من تاريخهم ، ومن سِيَر الأعلام المنسوبين إلى قبيلتهم ، من الشيعةً ، دون استثناءٍ نعرفه . شأنهم في هذا شأنُ عامّة أهل "الكوفة" ونطاقها الواسع . بل إنّ كلُّ الذين نعرفهم منهم ، من الأعلام المنسوبين إليها ، كانوا من خواصّ الشيعة ، العاملين من حول الأئمة عليهم السلام . وبعضهم

من الشهداء على الطريق الصّعب الذي سلكوه معهم . أعرفهم الكُميت بن زيد ، من أجلّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام (60–126هـ/680–744م) . وحبيب بن مُظاهر (قتل :61هـ /680 م) ، الشهيد بين يدي الإمام الحسين عليه السلام يوم "كربلا" . والمُعلّى بن خُنيس (قُتل 133هـ/750م) ، موضعَ ثقة الإمام الصادق عليه السلام . وأوّل شهيدٍ للتنظيم السّرّي الشيعي في مراحله الأُولى (ذكرناه مليّاً في كتابنا "التاريخ السّرّي للإمامة") . كما نذكرُ القارئَ زر بن حُبيش(ت:83هـ/702م) صاحب أمير المؤمنين عليه السلام . واشتهر بقراءته التي أخذها عنه .

(7)

إذن ، وما دام بنو أسد الشيعة هم الكثرة الطّاغية سُكّانيّاً على المدينة ، وما دام لهم ذلك الحضور النّقيّ في النشيّع في كلّ ما نعرفه من تاريخهم . إذن ، فلا مَعدى لنا من الذّهاب إلى أنّهم هم الذين وهبوها هُويّتها المذهبيّة النقيّة . بحيث كان من قوّتها أنّنا رأينا الأكراد على الأقلّ ، وربما بنو خفاجة أيضاً ، يتحوّلون بسهولة إلى المذهب الغالب . وإن هم ظلّوا ، في كلّ مساهمتهم في ضرؤب نشاط المدينة الآتي ، عسكريين مقاتلين . يفتقرون إلى الحضور ، إلا قليلاً منهم ، في نهضتها العلميّة القادمة . في مُقابل الحضور القوي لبني أسد في الحياة العقليّة القادمة لـ "الحلّة" .

أمّا بنو مزيد ، أيّاً يكن مذهبهم من قبل ، فقد كانوا أذكى سياسيّاً من أن يتردّدوا في الالتحاق بما انتهى إليه حالُ الهُويّة الشيعيّة الغالبة على مدينتهم . الأمرُ الذي يُهوّن من شأن السؤال الذي طرحناه عن مذهبهم من قبل .

فهذا جوابٌ على القدر الكافي من التفصيل ، نراه مُبيناً للتساؤلات التي طرحناها في هذا الفصل .

———

الفصل الثاني : السورانيّون / السّريان

1 ــ مَن هم ؟

ابتداءً من هذه الفقرة ، وبعد أن فرغنا من تأصيل المدينة بشريّاً وهُويّةً ، سنبدأ الوفاء بأمانة عنوان البحث . حيث عقدنا عهداً مع القارئ ، بأن نُبيّن له ما كان من دورٍ أساسي للسورانيين / السريان في النّهضة العجيبة القادمة لـ "الحلّة" .

(1)

والاسم نسبةٌ إلى "سُورا" . وهي بلدٌ في نطاق مدينة "الحلّة" ، ما تزال تحمل الاسم نفسه . توصفُ على لسان البُلدانيين المسلمين بأنها **"بلدُ السّريان"** (ياقوت : معجم البلدان ، مادة "سورا") . لكنّ النسبة إليها في الكُتُب قد تكون أيضاً (السوراوي) أو (السّيّوري) أو (السُّورياني) .

لكنّ ، خلافاً لتخصيص "سورا" بوصف **"بلد السريان"** لدى ياقوت ، فإنّ الحقيقة أن كلّ المنطقة المُستنقعيّة التي تمتدُّ ، ابتداءً من الموقع الذي بنى عليه الفاتحون المسلمون مدينة "الكوفة" ومنها باتجاه الجنوب ، ــ هذه المنطقة الشاسعة ، بموازاة مجرى النهر ، كانت قبل الفتح الإسلامي بكثير معمورةً ببقايا الشعوب التي عمرتها قديماً بالتوالي ، من أكّديين وسومريين وكلدان وأشوريين وبابليين . هؤلاء هم الذين يعرفُ العالَم ، وخصوصاً مؤرّخوا الحصارة ، أنّهم هم الذين توالوا على مهمّة وضع اللبنات الأُولى للحضارة الإنسانيّة ، في الزراعة والفلك والتقاويم والطبّ والرياضيّات والمساحة والكتابة .

هؤلاء أنفسهم هم الذين انتهت بقاياهم في أنحاء "العراق" إلى أن حملت اسم (السريان) ، علَماً على عامة ذلك الخليط البشري المُتنوّع ، الذي بقي من ماضيهم البعيد .

(2)

فلماذا إذن خُصّت "سورا" وحدها بأنها "بلد السّريان" ؟

من وُجهة نظرٍ جغرافيّة بحتة ، فإنّ كل تلك المنطقة كانت من طبيعةٍ مُتغيّرة ، بسبب الكميّات الهائلة من الطّمى ، التي كان يحملها يومذاك ، ومن قبل أكثر، نهرا دجلة والفرات ، ليُضيفاها سنويّاً إلى مساحة المنطقة .

هكذا نشأت منطقة وصفناها بـ "مُستنقعة" ، تغطيها طبقةٌ من الماء بأعماقٍ مُتفاوتة ، تنشأ في موسم الفيضان الرّبيعي . تتخلّلها مجموعاتٌ من الجُزُر المعمورة بالسكان ، حيث ترتفع الأرضُ قليلاً عن مستوى الماء ، بحيث يمكن أن تُنشأ عليها المساكن من المواد الطبيعيّة الميسورة . أعلى هذه "الجُزُر" هي الهضبة التي ستُبنى عليه مدينة "النجف" فيما بعد ، بفضل اختيارها لتكون مدفن علي عليه السلام . فسُمّيت لفترةٍ بـ "مشهد علي" . قبل أن تستعيد اسمها التاريخي "المنجوف" ، أي المكان الذي لا يصِلُ إليه الماء . ثم تطوّرت إلى "النجف" كما هي عليه اليوم .

وطبعاً استمرّت هذه الحركة السُّكّانيّة / الإنشائيّة بعد الإسلام . فكانت القُرى تُنشأ حيثما ينحسر الماء بفضل طبيعة الأرض ، ومنها "سورا".

ويُمكن لمَن يريدُ أن يتتبّع هذه الحركة ، وأن يُميّز بين التّليد الموروث والطّريف الإسلامي منها ، عن طريق أسمائها بين عربيّةٍ وغيرها.

(3)

هذا السّرد يطرحُ سؤالاً :

إذن ، لماذا مُيّزت "سورا" عن غيرها من البلدان القديمة في "العراق" بأنّها **"بلد السّريان"** (إقرأ : "السوريان" ، نسبةً إلى "سورا") ، في ظلّ وجود سواها من البلدان القديمة ، المعمورة بغير العرب الفاتحين ، من السكان الأصيلين ، الذين قلنا إنهم من بقايا مختلف الشعوب التي عمرتها قديماً ؟

نقول في الجواب ، إنّ هذا التمييز في الصفة لا بُـدّ أنّه يعود إلى امتيازٍ في الموصوف . يعني أنّ نمط حُضورأهل "سورا" في المنطقة كان مختلفاً في النّوع والأثرعن حضورغيرها من القُرى والبلدان في الحالة الثقافيّة السّائدة .

هـذه الحالة هي التي نعرفُ أنّها ، من وُجهة نظرٍعقليّة ، كانت مُستندة إلى ما بقي من تراثها الحضاريّ الباهر. ومن وُجهة نظرٍ دينيّة ، كانت ، ككُلّ "العراق" قبل الإسلام ، نصرانيّة . تتبع السيّد المسيح عليه السلام وتُقدّس أُمّه دون تأليه . وذلك بفضل عُـزلتها التامّة ، في البيئة المُغلقة التي تعيش فيها . هي التي يعود إليها الفضل في نجاتها من التأثير الطاغي للمسيحيّة الوافدة من الغرب ، بما حملته من تثليثٍ ، وبما حملته أيضاً من تأليهٍ للسيّد المسيح ولأُمّـه .

دليلنا على صحة هذا الجواب ، أنّ هذا الامتياز لـسكان "سورا" دون سواهم ، قد استمرّ في طورها الإسلامي . سنقرأ ذلك في تحوّل أبنائها السّهل إلى الإسلام ، كما سنعرف . ثم سنقرأه أيضاً في العديد من أبنائها الذين عاشوا فيما بعد وعملوا في "الحلّة" ، بما برعوا فيه من علوم ومعارف لم يعرفها العقل العربي من قبل . كانوا أو كان أسلافهم قد اكتسبوها من البيئة الثقافيّة العريقة السّائدة في "سورا" .

فمن هؤلاء المُكنّى بـ "ابن متويّة" (واسمه غير عربي ، كما هو واضح)، أمّا اسمه في الإسلام فهو أحمد بن الحسين السوراوي . وكان يُحسن اللغة التي ستُسمّى فيما بعد بـ "السريانيّة" ، نسبةً إلى "سورا" . بحيث **"نقل الصحف الإدريسيّة من السوريّة إلى العربيّة"** (آغا بزرك: طبقات أعلام الشيعة . نوابغ الرّواة / 27) . مع ضرورة ملاحظة أنّ كلمة "السوريّة" في النّصّ ليست تعني النسبة إلى "سوريّا" المنطقة ثم الدولة ، كما هو شائعٌ ذائع . بل إلى "سورا" البلد .

ومن الطريف أن نُلاحظ هنا ، أن هذا النصّ يؤرّخ ، دون أن يقصد ، إلى تطوّرنسبة الكلمة من "سورا" ، إلى "سوريّة" نسبةً إليها في النصّ المُقتبَس ، ثم منها

إلى "سوريانيّة" ، وأخيراً إلى "سريانيّة" حيث استقرّت اليوم .

(4)

والطريف أنّ بعض المذاهب المسيحيّة الشرقيّة ترى إلى اللغة السريانيّة بوصفها لغتها الأصليّة الفقيدة . فتُطعّم بها صلواتها وما تزال .

والحقيقة أنّ هذا ليس إلا وهم ، منشؤه تجاهُل تاريخ الحِراك الديني في الشرق إجمالاً من النصرانيّة إلى المسيحيّة ، متأثرين بالتطوّر الذي حصل في الغرب. وأنّ أهل "سورا" ، بل كافّة أهل "العراق" الأدنى ، المُتكلّمون لغتها "السوريّة" ، كانوا نصارى ، لم يعرفوا المسيحيّة إطلاقاً ، بما فيها من تثليثٍ وتأليه . لذلك سرعان ما أسلموا على التّشيُّع بسهولة ، مع الاستفادة من فرصة تمصير "الحلّة" ، أوّلُ مدينةٍ كبيرةٍ عرفوها . ثم كان منهم الفقهاء العديدون الذين بنوا مجد المدينة الجديدة ، وطعّموا فكرها الثّري بروح ثقافتهم العريقة . الأمر الذي كان له أحسن الأثر على هُويّة نتاجها الفقهي الاجتهادي ، الذي ما نزال ننعم به غبطةً حتى اليوم .

(5)

ومنهم أيضاً آلُ الحاسب الحلّيّون . وهم **"بيتٌ معروفٌ بالكتابة والمساحة والحساب . منهم علَم الدين بن غنيّ الحاسب** (ح:680هـ/1281م) (الخاقاني : البابليّات :1 /118) .

ومنهم أيضاً وأيضاً عبد الحميد بن واسع ، يُعرَف بابن تُرك الحلّي **"حاسبٌ عالمٌ بصناعة الحساب فيها ، مُقدّمٌ فيها . مذكورٌ بين أهلها . له في الحساب تصانيف مشهورة"** (القفطي : إخبار الحكماء /155) . وسنترجم لهما بالميسور أدناه .

فهذه النماذج الثلاثة تنطوي على دليلٍ صريحٍ على ما امتازت به "سورا" من فنون المعارف ، التي ستنصبُّ ذهنيّتُها ، وليست هي بما هي ، في "الحلّة" الناهضة . ولذلك ، فيما نحسبُ ، خصّها البلدانيّون الإسلاميّون ، بشخص كبيرهم

ياقوت ، بصفة **"بلد السّريان"** .

وما من ريبٍ عندنا ، في أنّنا بمزيد بحثٍ ونظر قد نقعُ على نماذج مُماثلةٍ إضافيّة . يُمكن أن تُعزّزُ رؤيتنا لعاملٍ أساسيّ ، في سرٍّ من أسرارهُويّة مدرسة "الحلّة" الفقهيّة ، المُتقدّمة بمسافةٍ طويلةٍ ، بالقياس إلى المدرستيَن الشيعيّتيَن السّابقتيَن "قم" ثم "بغداد" .

2 ــ السورانيّون يدخلون السباق

(1)

من الثابت أنّ من أهل "سورا" مَن انضموا إلى المدينة التي نهضت إلى جوارهم . وإنّما لم نذكرهم في الباب السابق في عداد الذين شكّلوا المدينة سُكّانيّاً ، فلأنهم كانوا قِلّـةً قليلةً من حيث العديد . بحيث لم يكونوا ذوي أثر يستحقّ الذكر في الهيئة البشريّة التي التأمت في لمدينة الجديدة .

وعلى كلّ حال ، فإنّ الأمرَ يطرحُ سؤالاً خلاصته :

كيف ولماذا هجر هؤلاء بلدهم الناهض "سُورا" ، ذا الهُويّـة والحضور الثقافيّ القويّ . بحيث استحقّ ما وصفه به البلدانيّ الخبير ياقوت . فينزحون إلى المدينة الجديدة التي مُصّرت في جوارهم ، ليغدوا من سُكّانها ؟

نقول في الجواب : ما من سببٍ خاصٍّ أو من خصوصيّةٌ فيهم هم ، يدعونا للبحث عن جواب . وإنّما هو من باب حركة الانتجاع الاجتماعي ، التي تنشطُ غالباً بين المدينة وريفها .

وعلى كلّ حال ، فإنّ من الطبيعي والمألوف أنّ نشوء مدينةٍ جديدةٍ ، خصوصاً حيث تكون الوحيدة في مثل تلك المنطقة الشّاسعة الصّعبة ، أنْ تجذب إليها الرّاغبين في التّمتُّع بميزاتها المدينيّة ، بالقياس إلى قراهم البائسة . وقد رأينا قبل قليل كيف جذبت المدينة نفسها من قبلُ صنوفاً مختلفةً من البشر، اتخذوها لهم وطناً . سرعان ما تمثّلتهم في نسيجها الاجتماعي . مُخترقةً حواجز اجتماعيّة ونفسيّة عالية . لم يحدث أن اختُرقت بالبساطة نفسها من قبل ، فيما نعرف . قرأنا ذلك "الاختراق" في تحوّل غير طائفةٍ منهم بسهولةٍ إلى المذهب الغالب التشيّع ، وما في هذا التّحوُّل من دلالةٍ على الاندماج الطّوعي الكامل في شخصيّة المدينة .

هذا ، فضلاً عن السُمعة أالطيّبة لأُمرائها من بني مزيد . وهم الذين عُرفوا

في كلّ تاريخهم بالميل إلى الـدّعـة والسّلام ، واجتناب العنف بكافّة أشكاله .

(2)

لكنّ السؤال الحقيقي الذي يُمليه البحثُ على الباحث في هذا الطّورمنه ، فيما يخصُّ أهل "سورا" دون سواهم ، أكبرُ بكثير من مُجرّد نزوحهم ، بل هو أكبر حتى من تحوّلهم ، الذي يبدو أنّه كان سريعاً وسهلاً ، من النصرانيّة إلى الإسلام ، ليصِلَ السؤال مباشرةً إلى إشكاليّة دخولهم بجدارة ميدان السّعي إلى منح المجتمع الجديد ، الذي باتوا جزءً منه ، حياةً عقليّة تتناسب مع هُويّته الجامعة .

هاهنا ، خلافاً لِما قلناه على سبب نزوحهم إلى "الحلّة" ، سببٌ خاصٌّ . نراه كامناً في تراثهم الحضاري ـ الثقافي ، الذي يرجعُ إلى التاريخ الباهر لأسلافهم من الأُمم التي توالت على "العراق" ، وما قد بقي منه لدى أخلافهم . الذي ، وإن بات أصله من الماضي الذي لن يعود ، لكنّ منه أيضاً ما كان روحه وبعض إرث الأسلاف ومهاراتهم ما يزال حيّاً . وقد وقفنا على بعضه وبعضهم قبل قليل .

ذلـك هو الإرث الفريـد الـذي حمله معهم السورانيّون دون سـواهم إلى "الحلّة" . وانطلاقاً منه ساهموا مساهمةً لا بديل عنها في نهضتها القادمة . لولاها لَما كان ثمّة أدنى أمل في أن تكون أكثر من مجتمعٍ قد يكون وادعاً ، بفضل تركيبته البشريّة ، وما تحمله من توقٍ إلى العيش بسلام ، التي عرفنا مواصفاتها . لكنّه سيكون حتماً خامداً فكريّاً . فأنّى لبني أسد أو للأكراد أو للخفاجيين أن يملكوا مثل تلك الحوافز والذّهنيّة ، التي حملها أهل "سورا" معهم إلى المدينة الوعـد ؟

(3)

لكنّ هاهنا شرطٌ آخر لمساهمتهم الضروريّة . هو أنّ إرث السورانيين ، وما فيه من ذهنيّة مُتميّزة ، على أهميّته المُطلقَة ، لم يكُن ليعملَ عملَه في وطنهم الجديد، دون الموضوع القابل . تماماً مثل حاجـة البـذور الجيّدة إلى الأرض الصالحـة كيما

تزدهرُ وتُثمر.

ليس علينا ، في سبيل البحث عن مكمن الموضوع القابل ، إلى أكثر من أن نتذكّر ما نعرفه جيّداً من نُهود التشيّع الدّائم إلى البحث والنّظر. بحيث أنّه لم ينفكّ ، أثناء كلّ تاريخه من قبل ، من أن يكون له مركز بحثٍ عاملٍ ، من "الكوفة" ثم "قُمّ" ثم "بغداد" . وكان آخرُ مراكزه قبل فترة البحث ، قد دمّره الغُزاة الأتراك بنو سلجوق تدميرا . بحيث اضطرّ آخرُ كبارأعلامها الشيخ الطوسي ، محمد بن الحسن (385–460هـ /995–1067م) لأن يغادرها ويلجأ إلى "مشهد علي" حيث قضى نحبه ودُفن .

هكذا بات التشيّع ، لأوّل مرّة منذ الإمام الباقرعليه السلام ((95–114هـ / 713 – 732م) ، مُفتقراً إلى مركزٍ علمي – دراسي عامل . مهمته أن يُتابع البحثَ في تراثه الضخم ، وأن يُنجبَ الفقهاء المؤهّلين . الأمرُ الذي يحملُ تهديداً خطيراً جدّاً ، بأن تتوقّف حراكه ويجمُد ، كما حصل لغيره من المذاهب . فيُصيبُ شخصيّته الفكريّة المُميّزَة في الصميم .

في هذه اللحظة البالغة الدّقّة برُز أبو علي الحسن بن محمد الطوسي (ح : 515هـ/1121م) في قرية "مشهد علي" ، سلفُ "النجف" كما عرفنا . التي لم تكُن يومذاك أكثر من بضع بيوتٍ طينيّة . يأوي إليها أفرادٌ من المجاورين والزّوّار. بالإضافة إلى "جماعةٍ من العلويين والأشراف" ، على ما قاله السائح الهروي ، علي بن أبي بكر العلوي (ت:611هـ/1214م) في كتابه (الإشارات إلى معرفة الزيارات / 77) .

(4)

لسنا ندري ، وأنّى لنا ، كيف بدأ "مشهد علي" يتحوّلُ إلى حاضرةٍ علميّةٍ جديدةٍ عاملة ، مقصودة من الطلاب القادمين من مختلف الأقطار . فتملأ ، بفضل

شيخه أبي علي ، المكـان الشاغـرالذي كانت تحتلّه "بغداد". وطبعاً بفضل جاذبيّة مرقد الإمام علي عليه السلام أيضا .

لكنّنا نجـدُ في عِـداد تلاميذه الكثيرين ثلاثةً على الأقلّ من السورانيين الحلّيين . وفي المُقابل ، فإنّنا لسنا نجـدُ أحداً سواهم من أهل "الحلّة" بين تلاميذ أبي علي . ما قـد يُفهمُ منه أنّ هؤلاء السورانيون الحليّون وحدهم ، من بين مواطنيهم الكثيرين ، هم الذين التقطوا المعنى الكبير لِما يجـري غيربعيدٍ عنهم . وأهميّته الخاصّة بالنسبة لوضعهم خصوصاً ، بعد نقلتهم الذّكيّة إلى الإسلام . ثم لوضع مدينتهم الناشئة التي نفترضُ أنّها كانت تبحثُ عن هُويّتها ونمط حضورها بين المُدُن . والفرصةَ التي تمنحهم وتمنحها إيّاها . فسارعـوا إلى النّفر إلى"مشهد علي" وشيخه أبي علي . الأمرُالذي لم يكن مواطنوهـم من بني أسد أو الأكراد أو الخفاجيين مؤهلين لرؤيته ، بسبب نقص تجربتهم في الشأن الفكري .

لذلك اخترنا كلمة "سباق" ، في عنوان الفقرة ، وصفاً لحركتهم السريعة باتجاه "مشهد علي" . كيما يلمح القارئُ اللبيب كيف كانت حركتهم وكانوا هم التعبيرَ الصادق المُناسب عن الشوق الكامن في أعماق التشيّع يومذاك إلى البديل عن المركز الفقيد في "بغداد" .

ذلك هو الشوق الذي التقطه ، ويا للبراعة وسُرعة البديهة ، نخبةٌ ممّن نزلوا "الحلّة" فيمَن نزلوها قبل مـدةٍ قصيرةٍ ، قادمين من جوارها . هم الذين سيدخلون التاريخ تحت اسم "السورانيين" وتنويعاتها المعروفة لدى القارئ .

(5)

ثمّة ها هنا وجهٌ آخر لتلك الحركة ، لا بُدّ لنا من أن نقرأه ، وأن نأخذه بعين الاعتبار . وإلا سنكون مُقصّرين في بيان العناصر التي تآزرت لتمنح حضورهم معناه التاريخي الباهر .

ذلك الوجه كامنٌ في تقبّلهم السّهل من قِبَلِ الشيخ أبي علي الطوسي ، ضمن تلاميذه الكثيرين في "مشهد علي" . فكيف تقبّلهم في مجلس درسه الحافل في "مشهد علي" ، وإن هم قد أسلموا وحسُن إسلامهم ، لكنّهم كانوا بالأمس القريب نصارى ، عريقين في النّصرانيّة ، بعيدين كلَّ البُعد عن العالَم الفكري وهمومه التي يخوضُ فيها شيخهم الجليل . في حين أنّ كلّ الذين نعرفهم من تلاميذه الآخرين قادمون من بيئاتٍ شيعيّةٍ ، راسخة القدم في التشيّع . بل إنّ بعضهم الأكثركانوا مَن الذين قد سبق لهم أن تلقّوا قسطاً من الدراسة بدرجةٍ ما . شأن كلّ الذين يتجهون للدراسة العُليا على كبار الشيوخ والمُدرّسين .

وحدهم السّورايّون من بين الجميع اقتحموا مجلس أبي علي عُراة إلا ممّا ورثوه من علوم وفنون أسلافهم البعيدين ، وإلا من ذهنيّتهم اللامعة البالغة التّنوّع . الأمر الذي نتصوّرُ أنّه ألقى عبئاً ثقيلاً على عاتق شيخهم . ما نشكُّ في أنّه قد تعامل معه بالصبر وطول الأناة .

(6)

الجواب عن هذه الإشكاليّة التفصيليّة هو ، فيما نحسب ، ليس كامناً فقط في نمط مزاج أبي علي الشخصي المُنفتح ، ولكن المُحاصَر أيضاً في فُرصةٍ وحيدة ، تُنقذه وتُنقذُ التشيّع ، بعد تدمير آخر مدارسه . بحيث ألزمه بأن لا يُضيّع أي فرصة لإعادة الحياة إلى البحث الشيعي . بل نقرأه أيضاً ، وربما بالدرجة الأُولى ، في قُدرة التشيّع الفذّة على استيعاب الآخَر المُختلف ، بما يتناسب مع شخصيّة التّشيّع الفكريّة وهمومها . ولتلك القُدرة الفذّة أمثالٌ جمّة ، ليس هذا البحث محلّ بسط الكلام عليها . وقد بيّنّاها تفصيلاً في كتابنا (العقلُ الفارسي في الإسلام) .

المهمّ بالنسبة لهذه المرحلة التي وصل إليها السّرد نقول :

إنّ الذي لاريب فيه أن التّشيّع الإمامي ، بشخص مدرسة "الحلّة" الفقهيّة ،

وأصدائها المُتجاوبة في الفقه الشيعي الإمامي إجمالاً ، قد استفاد كثيراً من دخول هؤلاء عالمَه الفكري . بما يحملونه من منهجيّةٍ وذهنيّة ومعرفة مُختلفة ، عملت بمثابة دمٍ جديد انصبّ في عروق نمط البحث الفقهي الغالب يومذاك . فحوّله من حالٍ إلى غيره . بحيث أنّ الخبير بنشأة الفقه الإمامي ومدارسه لَيتساءل : ماذا كان يُمكن أن يحصل لنا ، بالنظر إلى التطوّرات التاريخيّة المُحبِطة المُتعاقبة ، لو اننّا بقينا عند المستوى القلق ، الذي لم يخلُ من ذهنيّة الالتحاق بالآخَر المُختلف ، الذي انتهت إليه مدرسة "بغداد" ، بشخص آخر أعلامها الكبار الشيخ الطوسي ؟

***

بعد أن وفينا بحقّ الرّوّاد السورانيين من التّعريف والذكر إجمالاً ، لم يبقَ لنا ، فيما بقي من الكتاب ، إلا أن نُعرّف بمن بقي ذكره من أفرادهم فرداً فرداً . بتركيب سيرةٍ شخصيّةٍ لكلٍّ منهم . نأخذ مفرداتها ممّا أتت المصادر على ذكره من سيرتهم . وبذلك نقضي بعضَ حقّ كلٍّ منهم علينا . وما عند الله خيرٌ وأبقى .

———————

الفصل الثالث : أعلام السورانيين في الحلّة .

سنعمل في هذا الفصل على تقديم أوسع سيرةٍ ممكنة لهؤلاء الأعلام . مع تطعيمها ، حبث يلزم ، بالشروحات والملاحظات المُناسبة ، الإضافيّة غالباً على ما في المصادر.

المقصـــود منها ، أعني تلك الشّـــروحات والملاحظات العتيدة ، منحُ ما قد تقوله المصـــــادرالمعنى والمغزى . مُســـــتفيدين من خبرتنا بالفترة ، التي يُتيحُها لنا موقعُنا العالي في الزمان .

هذا ، وســـنُحاولُ ما أمكن تنســـيق السِّـــيَر زمنيّاً / تاريخياً . بحيث نُترجمُ للسّـابق منهم قبل اللاحق . وبذلك قد نقرأُ ضـمناً جانباً من الحركة الفكريّة التّطوريّة التي كانت عالقة في "الحلّة" في تاريخها المُبكّر . والتي كان الســـورانيّون العامل الأساسيّ فيها .

وعليه فسنبدأ بذكر السورانيين الثلاثة ، الذين عرفنا أنهم كانوا رُوّاد النّفر إلى"مشـهد علي" من أهل "الحلّة" ابتغاءَ الدراسـة على أبي علي الطوسـي . ثم نُثنّي بذكر الفقهاء من أخلافهم .

———

1 ــ هبة الله بن رطبة السوراوي

(ح: اواسط القرن 6 هـ/ 12 م)

(1)

ثمّة ملاحظةٌ طريفة نبدأ سيرته بذكرها ، والوقوف على ما قد يكون فيها من مغزى . هي أن الحرّ العاملي في كتابه (تذكرة المُتبحّرين / 1057) ينفرد بأن يورد اسمه هكذا : الشيخ جمال الدين هبة **الدين** بن رطبة السّوراوي . في حين أنّه في كتابه (أمل الآمل : 2 / 342 – 43) ترجم له تحت عنوان **"هبة الله"** . ثم اكتفي من سيرته بالقول :**"كان فقيهاً مُحدّثاً صدوقاً . يروي عن الشيخ أبي علي بن الشيخ أبي جعفر الطوسي"** .

فهل هذا الاختلاف قد حصل عفواً أو سهواً ، أم هو مقصود . وما الذي قد يكون فيه من دلالة ؟

(2)

ما من ريبٍ عندنا في أنّ اسمه الأصلي قبل الإسلام كان **"هبة الله"** . وعليه فإنّ من الممكن أنّ **"هبة الدين"** هو تعديلٌ حصل بعد الإسلام . ربما كان الغرض منه أن يكون بمثابة تنويهٍ بهدايته بعد الضلال . نقول هذا فقط على سبيل تصحيح نقل الحرّ الفريد عن مصدره المجهول .

لكنّ كافّة المصادر التي ذكرته لم تُضف على سيرته شيئاً ممّا قرأناه عند الحرّ . بل إنّ عبد الله أفندي في (رياض العلماء : /) ، وهو الذي عُرف بالصبر على البحث عن المعلومات ذات العلاقة بسيرة الذين يترجم لهم في كتابه ، يذكره عرضاً في عبارةٍ ضعيفةٍ :**" وهبة الله بن رطبة أيضاً من العلماء"** . التعبير الذي يحملُ معنى الشهادة لمَن لا يعلم أنّ أصل صفة الرجل عنده أنّه **"من العلماء"** . ويدلُّ ضمنا على أنّ الذي في يده عليه لا يزيد عن معلوماتٍ فقيرة .

(3)

الخلاصة التي ننتهي إليها من هذا التدقيق هي :

ــ أنّ هبة الله هو أولُ مَن نفروا من "الحلّة" إلى "مشهد علي" ، للدراسة على شيخه أبي علي الطوسي . أي أنّه يحظى وحده بشرف ريادة الرّواد الحليين جميعاً .

ــ أنّه ، فيما يبدو ، كان إذ ذاك في سنٍّ عالية ، بحيث أن حياته في مهجره كانت قصيرة جداً . والظاهر أنّه لم يعُد إلى "الحلّة" أبدا . بدليل أنّنا لا نجدُ بين الحليين مَن قرأ أو روى عنه . وما ندري إلى مَ رمى الحرّ العاملي بكلامه ، حيث قال فيما اقتبسناه عنه في الترجمة له :"يروي عن الشيخ أبي علي . . . الخ . " ، ما دمنا لا نعرفُ له روايةً عنه أبدا . إلا إذا فهمنا من العبارة أنّه كان يملك عنه من المعلومات ما ليس عند كلّ الآخرين . وهو بعيد . والذي نُرجّحه أنّه افترض افتراضاً أنّه مادام الرجل قد نفر إلى "مشهد علي" ، ومادام قد حضر على شيخه أبي علي ، فلا بُدّ أنّه روى عنه .

ومع ذلك ، مع ضعف حضورهبة الله ، فإنّنا نحتفظُ له بشرف الرّيادة . خصوصاً وأنّ ثمرتها اليانعة ستظهر على يدَي ولديه ورفيقَيه إلى مهجره الحسين والحسن ، وخصوصاً على يد الأول منهما .

_____

2ــ الحسين بن هبة الله السّوراوي

(ت:579هـ/1183م)

(1)

هو الابن الأكبر لهبة الله ، رائدَ الرّوّاد الحلّيين إلى النّفر إلى "مشهد علي" ، ابتغاء الدراسة على الشيخ أبي علي الطوسي .

ذكره الحرّ العاملي في (أمل الآمل : 2 /104 – 105) بكلماتٍ موجزة ، اقتبسها عن مُنتجب الدين الرازي في كتابه (الفهرست) . وصفه فيها بـ **"فقيهٌ صالح ، وكان يروي عن الشيخ أبي علي الطوسي "** . ما يدلُّ على أنّه لا يعرفُ عنه ما يُذكَرممّا هو معروفٌ عند غيره . وأنّه لم يبذل الجُهد اللازم ، في سبيل الحصول على ما يُغني ترجمته بما يستحقّ .

والطريف أنّ أُستاذنا الطهراني في (طبقات أعلام الشيعة ، الثقات العيون / 83) اقتبس عبارة الحرّ العاملي حرفيّاً . ثم أضاف عليها ملاحظةً قال فيها ما خلاصته ، إنّ الحرّ العاملي كرّر ذكرَه مرتين . مرةً باسم الحسن ، وثانية باسم الحسين . وهذا خطأٌ نادر من أُستاذنا في تحقيقاته الدقيقة . مبنيٌّ على أنّ الاسمين هما لشخصٍ واحد ، وأنّ أحدهما وهمٌ أو من خطأ من النُّساخ . مع أن عناصر سيرةَ كلٍّ من الرجليَن مختلفةٌ عن الأُخرى اختلافاً بيّناً . ما يدلُّ دلالةً لا ريب فيها على أنّهما شخصان اثنان .

(2)

كل ما نعرفه عن الحسين يدلّنا على أنّه هو الرّائد الأوّل بامتياز لنهضة "الحلّة" العلميّة . بدليل أن الجيل الأوّل من فقهائها كلّهم من تلاميذه . الأمرُ الذي يدلُّ دلالةً لا ريب فيها ، على أنّه ما أن رجع من "مشهد علي" إلى "الحلّة" ، بعد وفاة شيخه أبي علي الطوسي فيما نُرجّح ، حتى انقلب إليه الطلاب ، بحيث بات ، في

بـدو أمره بـ "الحلّة" ، المُدرّسَ الأوّلَ وربما الوحيدَ فيها . قبل أن يتسعَ الأمرُ أمام مساعي المدينة ، في اكـتساب شخصيّتها العلميّة القادمة ، ويكثر المدرسون فيها . مَسوقةً بالشّـوق المُـزمن إلى مـلء الثّغرة الفاغـرة التي نشأ ت بتدميـر مدرسة "بغداد" . وخلوّ العالَم الشيعي ، لأوّل مرّةٍ منذ قرون ، من مركزٍ يُتابع البحث ويُنتج الفقهاء .

(3)

بالبحث اجتمع لدينا من أسماء تلاميذه :

1 ــ الشيخ الفقيه أبو محمد عربي بن مُسافر العبادي . وهو أوّل الفقهاء من بني أسد ، الذين عرفناهم من المُعرقين في التشيّع . وأكبر عنصرٍ سكاني عديداً بين العناصر البشريّة الأربعة التي التأمت في المدينة . والفقيه العبادي قد قرأ في "الحلّة" على غيرالحسين ، ربما في مرحلةٍ متأخرة .

2 ــ محمد بن إدريس العجلي الأسدي أيضا . وسيأتي التعريف به وبمكانته بعد قليل .

3 ــ إبراهيم الصنعاني . الذي يبدو من نسبته أنّه من "صنعاء اليمن " . قدم إلى "الحلّة" للدراسة . ثم رجع إلى بلده ، وبذلك انتهت صلته بالبيئة الحلّيّة . لذلك لا نجدُ له ذكراً في كُتُبنا .

4 ــ محمد بن أبي البركات . لا نعرفُ عنه ما يذكَر . ولا ذكر له أيضاً .

5 ــ موسى بن طاوس . الذي نُرجّح أنّه سوراوي . وإن نسبَ ابنُه رضيّ الدين علي بن موسى الشهير نفسه إلى السُلالة النبويّة المُطهّرة .

6 ــ علي بن الحسن بن إبراهيم الحلبي العُريضي . هو كما تشهد نسبته من مدينة "حلب" . يبدو أنّه قصد "الحلّة" للدراسة . إذن فهو طليعة صيرورة "الحلّة" مركـزاً علميّاً مقصوداً للطلاب من أماكن بعيـدة . وذلك إن صحّ يـدلُّ على أن نجـمَ

المدينة بدأ يسطع ، بحيث يجذب إليها الطامحين .

6 ـ أبو البركات ، العبداد بن جعفر بن محمد الديلمي . ومن الغني عن البيان أنه قدم من بلاد الديلم القصيّة . وفي ذلك من الدلالة ما قلناه على سابقه .

7 ــ علي بن فرج السوراوي . ذكره وذكر روايته عن الحسين بن هبة الله ، الشهيدُ الثاني زين الدين الجُباعي ، في إجازته للشيخ حسين بن عبد الصمد هكذا : **"الشيخ أحمد بن صالح القسّيني ، عن الشيخ علي بن فرج السوراوي ،عن الحسين بن رطبة عن أبي علي الطوسي"** . إذن فهو أحدُ اثنين من السوراويين من تلاميذ الحسين . وطليعةُ عددٍ كبير من التلاميذ السواروبين الحلّيين. من الذين سنراهم بعد قليل يتقدّمون يتقدّمون للانضمام إلى السبيل الذي سيُشرَع للرّاغبين .

8 ـ يحي بن محمد بن يحيى بن الفرج السوراوي (ح:620هـ/1223م) . هو ثاني السوراويين من تلاميذه . ورد ذكره في عدادهم في إجازة الشيخ محمد سبط الشهيد الثاني للمولى محمد أمين الاسترآبادي . كما في آخر الخلاصة للعلامة. وهو من شيوخ ابن شهرآشوب . ويوصف بأنّه **"اختصّ بالفقيه الحسين بن هبة الله السوراوي"** (موسوعة طبقات الفقهاء:306/7) . قرأ على شيخه كتاب (تهذيب الأحكام) للشيخ الطوسي . كما أجازه برواية جميع مصنفات الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي .

التقى الحافظ ابن شهرآشوب المازندراني عندما زار هذا "الحلّة" فأجازه بكتاب (معالم العلماء) . ومن تلاميذه : سديد الدين يوسف والد العلاّمة الحلّي . قرأ عليه كتاب (تهذيب الأحكام) . والمحقّق الحلّي جعفر بن الحسن بن سعيد ، والسيّد فخار الدين بن معدّ الموسوي .

9 ــ الشيخ محمد بن جعفر بن علي بن المشهدي الحائري كما في (المزار

الكبير) للشيخ محمد نفسه . حيث قال : **" وأخبرني عالياً الشيخ الفقيه أبو عبد الله الحسين بن هبة الله بن رطبة ، عن الشيخ المفيد أبي علي الحسن بن محمد الطوسي"** . وكما في إجازة الشيخ حسين بن حماد الليثي محمد بن نعيم المطارآبادي . حبث ذكر إجازة الواسطي للشيخ نجم الدين خضر بن محمد نعيم المطارآبادي . ذكر رواية هؤلاء عنه من الخامس إلى الآخر صاحب الرياض .

10 ــ موفق الدين منصور بن علي بن خشرم .

11 ــ أبوه علي بن خشرم يرويان عنه . كلاهما كما عن مجموعة بخط الشهيد .

12 ــ محمد بن جعفر الحائري .

13 ــ سالم بن محفوظ السّوراوي ، الذي ستأتي الترجمةُ له فيما سيأتي من الكتاب .

14 ــ علي بن الفرج السُّوراوي . ستأتي الترجمة له أيضاً .

(4)

فهذا العديد الكبير من التلاميذ الذين حضروا على الحسين ، الذي لسنا نرى له مثيلاً أو قريباً له في "الحلّة" من قبل ، لَدليلٌ واضحٌ على أن اتساع حضورها العلمي إنّما حصل على يده .

وإنّنا وإن كنّا لا نجدُ له في كُتُبنا الذكرَ والتنويهَ الذي يستحقه ، جزاءً وفاقاً لحجم حضوره في تاريخ بلده ، وضمنا في تاريخ التّشيّع ، لكنّ لهذا الرّائد الكبير ذكرٌ عريضٌ في كُتُبنا . من ذلك رياض العلماء:193/2 ، أعيان الشيعة :190/6 ، معجم رجال الحديث :112/6 ، موسوعة طبقات الفقهاء:6 /94ـ96 ، وفي كتابينا : أعلام الشيعة ونشأة الفقه الإمامي ومدارسه ، فصل "الحلّة".

هـذا ، كما ترجم له العسقلاني أيضاً ترجمةً نادرةً وممتازة في كتابه (لسان

الميزان : 316/2) . ممّا قالـه فيها : **"شـيخ الشيعة وأبو شـيخهم أبي طاهرهـبة الله . كان عارفاً بالأُصول على طريقتهم . قرأ الكُتُب . ورحل إلى خراسان والرّيّ ، ولقي كبار الشيعة . وصنّف وشغّل بالحلّة"** . لكنّه لم يأتِ على ذكره في كتابه الآخَر (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) . مع أنّه في الصّميم من موضوعات كتابه.

من وجوه أهميّةُ نصّ العسقلاني ، الذي عاش بعد صاحبنا بما يزيدُ على قرنين من الزمان (ت:852هـ/1448م) أنّه ، أي العسقلاتي ، اطّلع على مصادر شيعيّة فُقدت فيما بعد . كما أنّه قال في تمام الترجمة : **"له تصانيف"** ، الأمرُ الذي لسنا نجد له أدنى إشارةٍ في كُتُبنا . وربما كان أكثر ما قاله أهميّةً بالنسبة لبحثنا الآن هي في قوله :**"رحل إلى خراسان والرّيّ ولقي كبار الشيعة"** . حيث أرّخ ، دون أن يقصـد ، لبـدايـة تواصل "الحلّة" النّاشـئة مع بقايا المراكـز الشيعيّة الغابـرة في المنطقة الفارسيّة .

3ــ الحسن بن هبة الله السوراوي

(ح : 550 هـ تخميناً / 1155م)

هو الابـن الأصغر لهبة الله . عـرفنـا ذلك ، تبعـاً لأسـتاذنا الطهراني فـي (طبقات أعلام الشيعة ، الثقات العيون / 70) ، من أنّ الحسن يروي عن أبي علي الطوسي بواسطة ابن إدريس . بينما حسب قوله أيضاً : **"لسنا نعلم له [** أي للحسن **] رواية عنه [** يعني عن أبي علي **] بلا واسطة"**.

ومع ذلك ، أي مع صدق ملاحظة أستاذنا البارعة ، وخصوصاً إسناده النّفي إلى أنه هو لا يعلم ، وليس إلى حقيقة الأمر فيما يرى ، فإنّنا لانشك في أنّ الحسن كان رفيق والده يوم شدّ الرّحال إلى "مشهد علي" . وأنّه قد حضر مع أبيه على أبي علي في "مشهد علي" . وإلا فكيف اكتسب الصفات التي نجدها لـه لـدى الحر العاملي في (أمل الآمل : 2 / 80) ، حيث كتب في الترجمة القصيرة التي علّقها له : **"كان فاضلاً فقيهاً عابداً . يروي عنه ابنُ إدريس . له كُتُب"** .

ثم أنّ الشهيد الأول (ق: 768هـ/1384م) يُضيفُ إضافةً مهمة إلى سيرة الرجل ، تُبيّن ما قاله الحرّ على **"كُتُب"** له . ذلك حيث يقول في إجازته لابن الخازن الحائري : **"وبهذا الإسناد مصنفات الشيخ جمال الدين الحسن بن هبة الله بن رطبة السّوراوي"** . (المُحدّث النوري : مستدركات وسائل الشيعة :3/ 128) . والشهيد هو ابنُ "الحلّة" والخبير بأعلامها . فضلاً عن أن عبارته هذه تتركنا نعتقد أن تلك الـ **"مُصنّفات"** كانت موجودة ، أو على الأقلّ معروفة ، يوم خطّ إجازته ، أثناء السنة 760هـ/1359م تخميناً . وإلا كيف يُجيز تلميذَه بها !

(2)

النتيجة البالغة الأهميّة لهذا التدقيق ، أنّ الحسن هو أيضاً الرّائد الذي يعود إليه الفضل في جانبٍ هـامّ وأساسي في تاريخ الحياة العقليّـة لـ "الحلّة" ، وهي تـنتجه

إلى نهضتها القادمة . وأنّه هو الذي افتتح تصنيف الكُتُب فيها . وأنّه هو أيضاً الذي بدأ تواصُل "الحلّة" مع المراكز العلميّة الشيعيّة . الأمر الذي سيكون عنصراً أساسيا بين عناصر نهضتها القادمة . كما يدلُّ ضمناً على بداية إدراك نُخبةٍ من أهلها لِما يؤسّسُ لذاتيّتهم وذاتيّة مدينتهم ، باعتنائهم بتصنيف الكُتُب .

ويا ليت الشهيد توسّع قليلاً في شأن تلك الكُتُب. فذكر لنا ، على الأقلّ ، أسماءها ، أو أسماء بعضها على الأقلّ . لربما دلّنا ذلك دلالةً ما على الهُويّة الفكريّة لهذا الذي تقاطع في شخصه أنه ابن "سورا" مولداً ، وابن "مشهد علي" تحصيلاً وعلماً ، وهو يخطو خطواته الأُولى بالاتجاه الذي يتناسب مع تلاقح الهُويّتَين المُتقاطعتَين في شخصه .

وعلى كلّ حال ، فإن جميع تلك الكُتُب مفقودٌ اليوم من أسف . ولولا أنّ الشهيد رضوان الله عليه كان الوحيد الذي أشار إليها بتلك الإشارةً المُبتسَرَة ، لَما عرفنا أصلاً بهذه المُساهمة الرّيادية التاريخية لهذا الفقيه الحلّيّ المُبكّر .

(3)

ما يزيد من أسفنا على فقدان كُتُب الرجل ، أنّنا نعرفُ أنّ ابن إدريس ، محمد بن إدريس العجلي الأسدي (558 – 598هـ/ 1162–1201م) هو تلميذه الوحيد . فكأنّه تفرّغ له طوال سنيّ الطلب من العمر القصير لتلميذه النجيب .

ومن المعلوم أنّ الفقيه الفذّ ابن إدريس هو رائد ومؤسّس الفقه الموضوعي في الحركة التّطوريّة للفقه الإمامي . والفقه الموضوعي هو ذلك الفقه الذي ينظرُ بالدرجة الأُولى إلى تحقيق المصلحة الكامنة في الحكم الشّرعي ، بما يتناسب مع مُراعاة الأُصول العامّة للفقه .

ومن المعلوم أنّ المصلحة أمرٌ مُتغيّر ، قد ينقلب مع الظرف المُتغيّرلموضوع الحكم ، ومع موقعه في الزمان والمكان . الأمرُ الذي يمنح الفقيه الموضوعي القُدرةَ

على أن يُـزاوج في فـقهه بين الأصول العامّـة الثابتـة ، وبين تغيُّر الظروف والأحوال . وهو يبحثُ عن وجه المصلحة ، مع المُحافظة على مُعطيات الأُصول .

والحقيقة أن الفقه الموضوعي ، عند ابن إدريس ، ليس مسألة وُجهة نظرٍ شخصيّة ، أو اجتهادٍ شخصي فقط . بل هو ، بالإضافة إلى ذلك ، تطبيقٌ لنصٍّ صريحٍ مأثورٍ عن غير إمامٍ من الأئمة عليهم السلام ، في حديثٍ مشهور : **"إنّما علينا أن نؤصّلَ لكم الأُصول وعليكم أن تُفرّعوا"** . أي أنّه يضعُ مسألة تشريع الأُمّة لنفسها ، في التفاصيل المعمول بها ، على عاتق الأكفاء منها ، كما هو شأن التشريع لدى كلّ الأُمم . حيث الدستور يُبيّن الحدود الثابتة ، التي لا سبيل إطلاقاً إلى تجاوزها. في حين أن القوانين التفصيليّة تُعالج الشؤون اليوميّة للناس في كافـة الوجـوه والنواحي . بحيث تُلاحق المصالح أينما تأتّت فيما يتناسب ، أوعلى الأقلّ لايتعارض مع نصوص الدستور .

مقابله فـقه النّصّ ، الثابـت والمُطلق والذي لا يقبـل التغييـر والتبديل .الذي وجّـه إليه ابنُ إدريس نقـداً حـادّاً ، حتى سمّاه في بعض ما كتب **"سواد على بياض"** ، تنبيهاً على هوانه لديه . نقـرأه في كتابـه العظيم (السّرائر) ، الذي لا يزال حتى اليوم ، بعد زُهاء عشرة قرون من تصنيفه ، كتاباً لا غنى عنه لفقيه .

وإنّـنـا لنعتقـد أنّ الفقه الموضوعي هو الذي ينهـدُ إليه الفقه الإمامي في حركته التّطوريّة العالقة اليوم في الجمهوريّة الإسلاميّة .

(4)

في ظلّ ملاحظة ذلك العنصر الأساسي من سيرة ابن إدريس ، ينشأُ لدينا سؤالٌ كبير :

ما كان تأثيرُ أُستاذه الحسن بن هبة الله في الشخصيّة المنهجيّة ذات الامتياز لتلميذه ابن إدريس ؟ وهل هو استفاد فكرة الفقه الموضوعي منه ؟

الجواب الوحيد الذي نملكه هو أن نقول : الله أعلم ! لآنّنا لا نعرف شيئاً عن منهج وشخصيّة أُستاذه الأول الفكريّة . كيما نؤسّس على ذلك جواباً عن السؤال . ولو أن كُتُب الأستاذ وصلت إلينا لكُنّا قادرين ، ربما ، على المقارنة بين الاستاذ وتلميذه . ولتغيّر الجواب بالتأكيد .

4 ــ أبو طاهرهبة الله بن الحسين بن هبة الله بن رطبة السورائي

(ح : أواخرالقرن 6هـ /12م تخميناً)

(1)

هو ابن الحسين الذي وقفنا عنده مليّاً قبل قليل .

نُرجّح أنّه هو نفسه الذي ذكره العسقلاني في (لسان الميزان) ، ووصفه في النّصّ الذي سبق لنا إيراده قبل قليل ، بأنّه **"شيخ الشيعة وأبو شيخهم أبي طاهرهبة الله"** . الأمر الذي يدلّ على ما كان له من المقام الرفيع بينهم .

ومع ذلك فإنّنا لا نجدُ له أدنى ذكر في كُتُبنا . ولهذا سببٌ نظنُّ أنّه الذي سنذكره أدناه .

(2)

خلاصة الكلام على هذه الأُسرة المؤسّسة :

إذن ، فهاهنا ثلاثة علماء تناسلوا في هذا البيت ، كلّهم يحملون اسم (هبة الله) ، هم :

ــ الجدُّ الأعلى في الإسلام هبة الله بنُ رطبة ، الذي وصفناه قبلُ بـ **"رائد الرّوّاد"** .

ــ حفيده من ابنه الحسين . الذي وصفه العسقلاني أعلاه بـ **"شيخ الشيعة وأبو شيخهم "**.

ــ حفيدُ هذا الأخير المُكنّى بأبي طاهر . الذي وصفه العسقلاني أيضاً بـ **"شيخهم"** يعني الشيعة .

هذا الأخير أنجب من اسمه الحسين أيضاً (الثاني) ، على اسم جدّه . فهو الحسين بن هبة الله بن الحسين بن هبة الله بن رطبة .

وإذن فهناك أيضاً اثنان يحملون اسم الحسين بن هبة الله .

هذا يدلُّ على أنّ هذه الأُسرة المؤسّسة ، قد تناسلت وأنجبت الفقهاء ، على مدى أربعة أجيال . كلّهم ، كما يبدو من الألقاب التي ساقها إليهم العسقلاني ، بلغوا درجةً عاليةً في المُجتمع الحلّي .

(3)

لكنّ هذا الخليط من أسماء أبناء هذه الأُسرة ، على دقّته ، هو الذي اقتضى منّا تدقيقاً مُضنياً . لكنّه أربك كاتبي سيرتهم ، بحيث ضاعت سِيَرُ بعضهم نهائيّاً من كُتُبنا ، لمُشابهة إسم بعضهم اسمَ غيره .

ولولا المُستوى الاحترافي العالي نسبيّاً للمؤرّخ العسقلاني ، واستفادته فيما يبدو من مصادر باتت اليوم فقيدة ، لضاع ذكرُ هؤلاء إلى الأبد . ضحايا تعلُّق الأخلاف العاطفي بأسماء الأسلاف .

فهذا ما يعودُ إلى هذه الأُسرة المؤسّسة وأعلامها في أجيالها الأربعة .

———

5 ـ المقداد بن عبد الله السّيُّوري

(ت:826هـ/1422م)

(1)

هكذا وردت نسبته في الكُتُب : "السّيُّوري" ، والظاهر أنّه هو الذي نسب نفسه بهذا النّحو . وما من مُشاحّة في الأمر . بعد أن ذكرنا فيما فات ضُروبَ النسبة إلى "سورا" . ومنها هذه .

هو أشهر الذين أنجبتهم "سورا" في كلّ تاريخها ، وأكثرهم ذكراً في الكُتُب . وما ذلك إلا بفضل مُساهمته الجُلّى في العمل مع أُستاذه الشهيد محمد بن مكّي الجزّيني على قضيّة النهضة في "جبل عامل" . حيث كان ساعده الأيمن في عمله . ذي الأثر البعيد والباقي في نهضة التّشيُّع إجمالاً . إبتداءً من "الحلّة" ، ومنها إلى "جبل عامل" ، واستقراراً في المنطقة الفارسيّة وبعض "الهند" . حيث ما تزال النّهضةُ تعملُ وتُنتج حتى اليوم . ثم بفضل أنّه هو الذي أنشا أولَ مدرسة لإعداد الفقهاء في "النجف" في التاريخ الثقافي الشيعي .

(2)

ما من ذكرٍ لمكان مولده . لكن ما من ريبٍ إطلاقاً في أنّه وفد إلى "الحلّة" فيمَن وفد إليها من السورانيين . ونحن نعرف أنّ هذه القريّة ظلّت تُلقي بأبنائها إلى المدينة الصّاعدة ، حيث يستضيئون بنورها الوهّاج .

في "الحلّة" التقى بالشهيد لقاءَ أُستاذٍ بتلميذه . ومنذ تلك اللحظة قامت بين الاستاذ وتلميذه علاقةٌ لم تنفصم أبداً طيلة زُهاء الثلاثين سنة الآتية . أي إلى شهادة الأستاذ سنة 786هـ/1384م .

عندما عاد الشهيد من "الحلّة" إلى وطنه اصطحب ثلاثة من تلاميذه أحدهم المقداد . وعندما أنشأ مدرسته الكبيرة في "جزّين" ، وجذبت إليها الطلابَ القادمين

من مختلف قرى "جبل عامل" وغيره ، أوكل إليه مهمّة التدريس في بعض مراحل الدراسة . والظاهرأنّ المقداد استمرّ في عمله هذا ما يُناهز العشرين سنة على ألأقلّ. أي حتى شهادة أُستاذه ، وربما بعدها بقليل .

(3)

بمقتل الشهيد ، وانهيار العمل في مدرسة "جزّين" التاريخيّة ، رجع المقداد إلى وطنه . لكنّه لم ينزل "الحلّة" ، خلافاً للمُتوقّع منه . بل رأيناه قد استوطن "النجف" نهائيّاً . وفيها استفاد من تجربته الرّائدة من قبل مع أُستاذه . فأنشأ مدرسةً على غرار مدرسة "جزين" .

والظاهرُ أنّ هذه المدرسة هي أوّلُ مدرسةٍ أُنشئت في "النجف" ، التي ستعجُّ فيما بعد بالمدارس . تولّى هو مهمّة التدريس فيها . واستمرت في العمل مدةً تزيدُ على الثلاثين سنة ، أي حتى وفاة مؤسّسها بتاريخ 26 جُمادى الآخرة 826هـ /20 أيار 1423م .

وحتى وقتٍ قريب كانت المدرسة باقية عاملة في حيّ البُراق بـ "النجف" . وإن هي حملت اسم "المدرسة السُليمانيّة" ، نسبةً إلى اسم مجدّد بنائها ، المدعو سليم خان ، بعد أن آلت إلى الخراب بالتّقادم . وقد دخلتُها مرّةً بالصُّدفة أثناء الدراسة . فرأيتها مدرسةً صغيرة ، أشبه بمنزلٍ متوسّط الحجم . يشغل غُرفها عددٌ ضئيلٌ من الطلبة . وذلك قبل أن يُقدمَ طاغية "بغداد" على تدميرها فيما دمّره من معالم المدينة القديمة . وممّن درس على المقداد فيها الحسن بن راشد البحراني ، رائد وطنه "البحرين" في النّفر إلى "النجف" في طلب العلم .

(4)

نذكر بالمناسبة أنّ ابن راشد ، فيما أُثِر عنه ، وصف أُستاذه وصفاً جامعاً مؤثراً ، قد يدلّ على ما كان يتمتّعُ بـه من صفات جسمانيّة وعقليّة ، ربمـا تساعدنا

اليوم على فهم سبب اختيار الشهيد إيّاه فيما كان يعملُ عليه . وذلك حيث قال : **" كان رجلاً جميلاً من الرجال . جهوريّ الصوت ، ذرب اللسان ، مُفوّهاً في المقال ، مُتقناً لعلومٍ كثيرة** . . . الخ . " .

لكنّ المقداد ، من جهةٍ أُخرى ، عاش حياته بعد أُستاذه في حُزنٍ مُقيم ، كئيباً كاسف البال . كان لا يكفُّ عن ذكره وتذكير تلاميذه به ، مع التنويه بفضله ، وعيناه تنهمران بالدموع .

(5)

في ختام هذه السيرة الموجزة لهذا الكبير نقول :

ترك المقداد مصنفاتٍ كثيرة . لاحظنا أنّ أكثرها كُتُبٌ دراسيّة ، تتناول بالشّرح والتّبسيط كُتُباً معروفة ، كانت مُتداولَةً على نطاقٍ واسعٍ في الحوزات العلميّة يومذاك . يبدو أنّ مؤلفها كان يُصنّفها برسم تدريسها لتلاميذه ، بحيث تُناسب ، بحسب نظره ، الخطّة أو المنهج الإعدادي اللازم لهم . وهو في هذا النّمط من التصنيف مُتابعٌ أيضاً لخطّة أُستاذه ، الذي نعرفُ أنّه إنّما صنّف كتابَه الباقي (الدُّروس) للغرض نفسه . طبعاً مع مُلاحظة الأصالَة في عمل الشهيد . في مقابل منهج الشرح والتبسيط في أعمال المقداد .

هذا ، وقد وضعنا ثبتاً شاملاً بمصنّفاته في ختام الترجمة التي علّقناها له في كتابنا (أعلام الشيعة) . فليرجع إليه مَن أحبّ .

———

أُسرة آل محفوظ السورانيّة

(1)

وهي منسوبةٌ إلى جدّها الأعلى الذي نعرفه محفوظ بن عزيز بن وشاح السّوراوي . الذي سنقفُ عنده أدناه ، بوصفه طليعة أُسرته . التي نظنُّ أنّها آخرَ أُسرةٍ ، ينتسبُ أو يُنسبُ أبناؤها في "الحلّة" إلى أصلهم السوراوي . قبل أن تتمثّلَ المدينةُ الجميعَ في جسمها الحيّ . فتكون نسبة الجميع بـ "الحلّي" وكفى .

واستناداً إلى تحقيقات صديقنا البحّاثة الجليل الدكتور حسين علي محفوظ رحمه الله ، فإن أخلاف الأُسرة ما يزالون حتى اليوم في الجانب الغربي من "بغداد" / "الكاظميّة" ، ومنها الدكتور نفسه . بينما انتشارها الأكبر كان وما يزال في مدينة "الهرمل" شمال "لبنان" . حيث ما تزال مُحتفظة باسمها ، وبشيءٍ ممّا ليست تُخطئه ملاحظةُ العارف من شخصيّتها ، وحضورأفرادها المُتميّز بين أبنائها ، ذي العلاقة بأصلها البعيد . بينما نفتقد وجودها في "الحلّة" بعد أبنائها الثلاثة ، الذين سنقفُ تواً على سيرة كلٍّ منهم .

فإذا صحّ ذلك ، وما من سببٍ يدعونا إلى الشّكّ في صحته ، فهذا يعني أنّ الأُسرة قد هجرت وطنها بعد آخرأولئك الثلاثة ، وتفرّقت بها السُبُل . بحيث أنّ الشطر الأكبر منها استقرّ به المقام في "الهرمل" على بُعدها . في حين أن بعضها الأقلّ استقرّ في "الكاظميّة" ، لصفتها السُّكّانيّة الشيعيّة الغالبة . ومن الواضح أنّ هذا وذاك هو من شأن المغلوب على أمره .

وليس ذلك بالأمر الغريب أو الهُجنة ، بالنّظر إلى ما عانته المدينة في أيام عزّها الأخيرة من افتقارٍ إلى السّلام . أطاح بالأُسرة المزيديّة ، التي عرفنا أنّ شخصيّتها وسياستها الرّشيدة كانت العاملَ الأساسي في نهوضها ونهضتها . كما أطاح بالتالي بحراكها الفكري ، بحيث بات من ماضٍ هيهات أن يعود .

(2)

6 ــ محفوظ بن عزيز بن وشاح السوراوي

(ت :690هـ/1291م)

(1)

وُلـد وعاش عامّة حياته في "الحلّة" ، في العصر الذي وصلـت فيه إلى بداية انحدار أمرها . ولكنها كانت تحتفظُ بشيءٍ من الحضوروالنشاط ، وتعجّ بالعلماء والأُدباء ، الذين انتشرعلى أيديهم التصنيفُ والتأليف .

ومع ذلك فإن سيرته في الكُتُب مضطربةٌ اضطراباً عجيباً .

فمن ذلك أنّ أُستاذنا الطهراني ، في الترجمة التي علّقها له في (طبقات أعلام الشيعة ، الأنوار السّاطعة / 146) ، ينسبه بـ "الهرملي العاملي" . وهي نسبةٌ نعتذر من شيخنا إذ نقولُ بحقّ إنّها مُضحكة . لست أدري من أين أتى بها . وهو الذي لا ريب في خبرته ودقّته . ولعلّها لِما ارتكس في ذهنه من انتشار بعض الأُسرة إلى مدينة "الهرمل" اللبنانيّة كما عرفنا . دون أن يلتفت إلى أنّ صاحبنا قد أمضى كلَّ حياته في "الحلّة". ولم يعرف "الهرمل" ، وربما لم يسمع باسمها . وأنّ هجرة بعض الأسرة قد حصل لأعقابها ، بعد أبي محمد محفوظ بمُدّةٍ طويلة . وقد بنى على ذلك الخطأ سلسلةً من الاخطاء فيما بقي من السّيرة .

ثم أنّ الشيخ الأميني في كتابه (الغدير:438/5) ينسبه إلى بني أسد : "الأسدي" . مع أنّه ، فيما ترجم له هناك ، ينقلُ عن غير مصدر ، منها الترجمة لابن المُتَرجَم له سالم ، في (أمل الآمل :124/2) ، التي اقتبسها الشيخُ بنصّها ، كلّها تنسبه إلى "سورا":"السوراني".

ومن نتائج هذه الفوضى أنّنا أيضاً وقعنا في الالتباس نفسه ، حيث نسبناه بـ "الأسدي" في كتابنا (أعلام الشيعة) .

(2)

بعد هذه الفقرة ، التي رمينا منها إلى ترشيد البحث ، وتحريره ممّا وقع فيه بعضُ السّلف من اشتباهات ، نصرفُ الكلامَ إلى الثابت الصحيح من سيرة هذا الفقيه الشاعرالأديب البارز في "الحلّة" في أوانه .

إنّ أوّلَ ما نُلاحظه في سيرة محفوظ ، أنّها تستقرّ في طرفيها بين أسماءٍ مشهورة . وهذا امتيازٌ جيّدٌ ، ليس يحظى به إلا الذين يعيشون في بيئةٍ عامرةٍ بالكبار.

فمن ذلك أنّ أوّلَ أساتذته هو السيّد فخار بن مَعَدّ الموسوي (ت : 630هـ / 1236م) ، الذي نعرفه جيداً بوصفه طليعة وأستاذ الجيل الثالث والأخير من علماء "الحلّة" ، بعد أُستاذ الجيل الأول فيها ، الذي عرفنا ممّا فات أنه الحسين بن هبة الله السوراوي . وأُستاذ الجيل الثاني عربي بن مُسافر .

أمّا أُستاذه الثاني فهو جعفر بن الحسن بن سعيد ، الشهير بلقب "المُحقّق الحلّي" (ت : 676هـ/ 1277م) . جزاءً وفاقاً على كتابه البكر (شرائع الإسلام في معرفة الحلال والحرام) أوّلَ كتابٍ مُبسّط سهل التناول في الفقه الشيعي الإمامي. ما يزال ، بعد ثمانية قرونٍ من تصنيفه ، من كُتُب الفقه السّائرة . بحيث أنّه ، بعد ستة قرون من تصنيفه ، شرحه الشيخ محمد حسن النجفي (ت: 1266هـ/ 1849م) في كتابه (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) . فأتى شرحه بمثابة مُطالعة شاملة سوّغت ما فيه من فتاوى . الأمرُ الذي يدلُّ على ما للكتاب من أهميّةٍ باقية .

والحقيقة أن المُحقّق ، فيما يبدو لنا ، هو الأبعدُ أثراً في تلميذه . وقد قامت بين الاثنين طيلة حياة الأُستاذ علاقةٌ حميمة . سجلاها معاً في شعرهما المُتبادَل الباقي المبسوط في (أمل الآمل : 2 / 229 –31 والغدير:440/5 –41) .

ومن أجمل ما له علاقة بهذه المُلاحظة ، أن النسخة التي كانت لدى الشيخ محفوظ من كتاب أُستاذه ، كانت حتى وقتٍ قريب في إحدى المكتبات الخاصّة في

مدينة "طوس" ، وعلى غلافها قصيدة الشيخ محفوظ (بخطّه ؟) في رثـاء شـيخه وقد رآها شيخنا الطهراني بنفسه . ذكر ذلك في كتابه (طبقات أعلام الشيعة ، الأنوار السّاطعة / 146) .

(3)

ومع ذلك كلّه . أي مع توفّر كافة الظروف المؤآتية في الوسط الحلّي للشيخ محفوظ ، ثم على الرغم أكثر من الأوصاف العالية التي تُسبغها عليه المصادر، من مثل :**"كان عالماً فاضلاً أديباً شاعراً جليلاً . من أعيان العُلماء في عصره"** (أمل الآمل:229/2) و **"من مشايخ الإجازة"** (الغدير : 5 / 439) ، ــ فإننا لا نجدُ له أيَّ أثر أو دور مُناسب في حركة التصنيف والتدريس التي كانت في عـزّ علوقها من حوله . اللهم إلا كتاباً بسيطاً سمّاه (غُرَر الدلائل) ، شرحَ فيه القصائد العلويّات السبع لابن أبي الحديـد المُعتزلي . رواه عـنه تلميذه (؟) كمال الدين علي بن الحسين بن حمّاد الليثي الواسـطي ، سـمعها منه **"بـداره في الحلّة في صفر سـنة ثمانين وستمائة"** (أمل الآمل / نفسه) . كما أنّ له شعر ، أكثره في المُطايبات والمراثي ، ما يزال منثوراً في الكُتُب ، ولم يُجمع في ديوان .

توفي في "الحلّة". ورثاه الشعراء بقصائد ضافية . ومنهم الفقيه محمود بن محمد الشيباني الحلّي بقصيدةٍ منها :

العالم الحَبـر الإمام المرتضى علم الشريعة مقتـدى العلماء

ما للفتاوى لا يُـــردُّ جوابهـا ما للـدعاوى غُطّيت بغطـــاء

ما ذاك إلا حين مات فقيهُنـــا شمسُ المعالي أوحدُ الفضلاء

والتّمعّن في كلمات الأبيات يدلّنا على أن الشيخ محفوظ صرف جهده أثناء حياته إلى ما له علاقة بالناس من وظائف الفقيه . أي الإجابة على الفتاوى ، والقضاء في الخصومات . على حساب العمل المفقود لديه في التصنيف والتّدريس .

7 ــــ محمد بن محفوظ السّوراوي

(ح:685هـ / 1258م)

لكنّه عاش بعد التاريخ لحياته أعلاه زمناً طويلا . وهو الابنُ الأكبر لمحفوظ ، بدليل أن هذا كان يُكنّى بـ "أبي محمد" .

(1)

لـه ذكرٌ عـريضٌ في المصادر المُعاصرة لـه . تـرجـم له الحرّ العاملي في (أمل الآمل :2 / 297) بترجمةٍ موجزة ، لـقّبه فيها بـ "تاج الدين" وكنّاه بـ "ابي علي" . ثم وصفه فيها بأوصافٍ ضعيفة : **"كان من الفضلاء الصُّلحاء الأُدباء المشهورين"** . وهـذه الأوصاف لا تدلُّ بالضرورة على أنّ ذلك كلّ ما كان يستحقّه المُترجَم لـه. بل على أنّ ذلك هو كل ما كان يعرفه الحرُّ عنه . فلجأ إلى إيراد ذلك الخليط من الأوصاف العامّة ، التي قـد تعني أيَّ شيء أو لاشيء.

المصادرُ الأُخرى تصفه بـ "القاضي" . ومنها الأميني في (الغدير:5 / 442) حيث وصفه بـ "قاضي الحلّة" ، وهذه وظيفةٌ غير مسبوقة في "الحلّة" . حيث كان ذوو الخصومات يلجأون إلى أي عالمٍ من علماء الدين لفضّ خصوماتهم . الأمرُ الذي بيّنه لنا تلميذه مُصنّف (الحوادث الجامعة / حوادث السنة 685) ، حيث قال :**"وفيها استناب قاضي القُضاة عزُّ الدين الزّنجاني ، في القضاء ببلاد الحلّة ، العدلَ الفقيهَ تاجَ الدين محمد بن محفوظ بن وشاح الحلّي"** . وهذا وصفٌ إضافيٌّ على ما قاله الحر ، هامٌّ على شخصيّة الرجل وسيرته ، حيث وصفه بـ **"العدل الفقيه"** . كما أنّه يُلقي ضوءاً نادراً على نمطٍ من العلاقة التي قامت يومذاك بين الإمارة ، التي نعرفُ أنّها كانت قبلُ تتمتّعُ بنمطٍ عالٍ من الاستقلال السياسي في عاصمتها "الحلّة" ، وبين السُلطة القضائيّة المركزيّة في "بغداد" ، المُمثَّلة هنا بقاضي القُضاة فيها . الأمرُ الذي يدلُّ على أنّ قبض الأُسرة المزيديّة على شؤون الحكم قد باتت رخوة ، نتيجة ضغوط

السَّلطة الحاكمة السلجوقيّة عليها . وأن العمرالقصير للمدينة قد بدأ ينحدر نحو النهاية المحتومة .

(2)

ابن الفوطي في (معجم الألقاب /136) يقولُ عرَضاً ، في الترجمة التي علّقها للفقيه الحلّي ابن العجيل ، ما يُفهَم منه أنّ هذا من تلاميذه . الأمرُ الذي يدلُّ ضمناً على أن صاحبنا كان من العاملين النّاشطين في التدريس بالحوزة العلميّة في المدينة . يؤيّد ذلك بقوّة الإشارةُ السريعةُ في (أمل الآمل / نفسه) إلى أنّ أحد أعلام "الحلّة" الكبار ، تاج الدين محمد بن القاسم بن معيّة ، هو أيضاً من تلاميذه .

ونقولُ في ختام هذه الترجمة ، التي جادت من الموجود ، أنّ الشاعرالشهير صفي الدين الحلّي (677–752هـ/1277–1339م) رثاه بقصيدةٍ وردت في ديوانه المطبوع / 256 . أتى فيها على ذكر ولدين له بلقبيهما فقط "زين الدين" و "جمال الدين" . ضاع ذكرهما نهائياً فيما يبدو من خاتمة الأُسرة ، فيما ضاع من ذاكرة "الحلّة" ، وهي تجتازُ أيامَ عزّها الأخيرة .

———————

8 ــ سالم بن محفوظ السوراوي

(ح : اواسط القرن السابع هـ/ الثالث عشر م)

(1)

هو الابن الاصغر للشيخ محفوظ . وإن نحن رأينا أُستاذنا الرّازي يقول في (طبقات أعلام الشيعة ، الأنوار الساطعة / 72) ، في ختام الترجمة المجزوءة التي علّقها له : **"وليس المترجم له ابن محفوظ بن وشاح الآتي ، ولا أخ تاج الدين محمد بن محفوظ الآتي في الثامنة"** (!) . فابن مَن وأخو مَن هو إذن ياأُستاذنا ؟

والمُتمعّن في تفاصيل نصّ الرّازي هذا إجمالاً يُلاحظُ جملة اشتباهات ، بعضُها مَبنيٌّ على بعض . كلّها ناشئة من ضعف خبرة الأستاذ بشؤون "الحلّة" ورجالها . ونحن نعذره فيما اشتبه عليه ، لِما في بحثها من صعوبة ، طالما لمسناها لمسَ اليد أثناءَ هذا البحث ، مع تفرّغنا له . فكيف بـه وهو الذي قد تناوله وخاض عُبابَه من جملة عمله الضخم .

(2)

وسالم ، المُلقّب في الكُتُب بـ "سديد الدين" ، موصوفٌ بصفاتٍ عالية في المصادر . من ذلك أنّه عند آغا بزرك **"من الفقهاء المُتكلّمين"** (طبقات أعلام الشيعة / نفسه) . درس على نجيب الدين يحيى بن الحسن بن سعيد الهُذلي الحلّي ، المُلقّب بيحيى الأكبر(ت : 690 هـ / 1291م ، وعلى الحسين بن رطبة السوراوي ، الذي غادرنا سيرتَه قبل قليل . وكلاهما نعرفه من كبار المُدرّسين في "الحلّة" في ذلك الأوان . كما أنّ تلاميذه كانوا من ذوي الحضور والمكانة فيها : رضيّ الدين علي بن طاوس(ت: 664 هـ / 1265 م) ، قرأ عليه كتابيه (التبصرة) و (ا لمنهاج) ، وسديد الدين يوسف بن علي بن المُطهر، والد العلاّمة الحلّي (ح : 648 هـ / 1250 م) ، والمُحقّق الحلّي جعفر بن الحسن بن سعيد ، الذي عرفناه قبلُ مصنف

كـتاب (شرائع الإسلام) (ت : 676 هـ / 1277 م) . قرأ عليه في الفلسفة وعلم الكلام .

ولنُلاحظ أنّ هؤلاء الثلاثة هم من الكبار في "الحلّة" حضوراً وتصنيفاً وتدريساً . الأمر الذي ينبغي إضافته إلى رصيد أُستاذهم . ذلك أنّ نجاحهم هو نجاحٌ له ضمناً ، باعتباره أُستاذهم الذي هيّأهم وأعدّهم .

كما أنّ **"له مُصنّفات"** حسب الحر العاملي في (أمل الآمل : 2 / 125) . وإن هو لم يذكر منها بالاسم إلا كتاباً واحداً سمّاه (المنهاج) في الكلام . لكنّه تابع قائلاً : **"وغير ذلك"** . ما يُفهم منه أنّ له من المصنفات ما لم يكُن يعرفها . ثم أضاف إليه الرازي في (طبقات أعلام الشيعة / نفسه أيضاً) كـتاباً اسـمه (التّبصرة) نظن أنّه في الفقه ، لمُناسبة الاسم للموضوع . كلُّ ما نعرفه عنه أنّه **"قرأه عليه تلميذه المُحقّق الحلّي . وقرأ بعضَه** [تلميذُهُ أيضاً] **رضيّ الدين بن طاوس"**.

(3)

فمن هذه الحيويّة ذات الوجوه ، نعرف أن صاحبنا ، خلافاً لأخيه محمد ، الذي انشغل أكثر ما كان بمنصب القضاء وبلباله ، قد صرف جُهدَه إلى العلم وشجونه، تلميذاً ومُدرّساً ومُصنّفاً .

مهما يكُنْ فإنّ سالماً كان خاتمة بيته القصير العمر .

———

9 ـ أبو الحسن علي بن يحيى الخيّاط السورائي

(ح : 609 هـ/1212م)

هكذا أتى اسمه في الترجمة الموجزة ، التي علّقها له الحرّالعاملي في (أمل الآمل : 2 / 110) . وهي أصل كلّ التّراجم له التي وقعنا عليها .

وتاريخ حياته الوارد في العنوان مُستفادٌ من تاريخ إجازةٍ منه لأحد تلاميذه . وما من ذكرٍ لتاريخ وفاته .

(1)

وصفه الحرّ في مطلع الترجمة الموجزة له بـ **"فاضلٌ جليل"** . وهو وصفٌ صريحٌ بما كان له من موقعٍ عالٍ في "الحلّة" .

لكنّ المُشكلة مع نصّ الحر هي في قوله : **"يروي عن العلاّمة"** . وهذا وصفٌ ، حين يُطلَق هكذا ، فإنّه يعني حصراً الحسن بن يوسف بن المُطهّر الحلّي الذي توفي سنة726 هـ /1325م . أي أنّه عاش بعد صاحبنا بما لايقلُّ عن قرنٍ من الزمان. الأمرُ الذي يُسقطُ نصّ الحرّ عن الاعتبار في هذه النقطة . وحسناً فعلت اللجنة العلميّة التي صنّفت كتاب (موسوعة طبقات الفقهاء : 7 / 184–85) حيث تجاهلت قولة الحرّ هذه ، فلم تذكر العلاّمة في عِداد أساتذة أبي الحسن . والحقيقة أنّ هذا الاشتباه عجيبٌ من الحرّ العاملي ، بما نعرفه له من الخبرة والتّقدُّم .

(2)

لكنّ هذه المُلاحظة المؤلمة ليست تنتقص أبداً من نسب أبي الحسن العلمي . ذلك أنّ من الثابت أنّه حظي بالحُضور على مجموعةٍ من العلماء . نذكرُ منهم : عربي بن مُسافر العبادي الحلّي (ت . بعد :580هـ/1184م) ، ومحمد بن إدريس العجلي الحلّي (ت:598هـ/1193م) ، قرأ عليه كتابه الشهير(السّرائرالحاوي لتحرير الفتاوى) ، ويحيى بن الحسن الأسدي الحلّي ، الشهير بكنيته ابـن البطريق

(ت : 600 هـ / 1203م) . ومن المعلوم للعارف أنّ هؤلاء جميعاً كانوا من عيون العلماء المُدرّسين في حوزة "الحلّة" ، التي كانت تتربّعُ على قمّة سعيها العلمي في ذلك الأوان .

(3)

في الوجه الآخَر لسيرته ، فإنّ نجدُ من تلاميذه : رضي الدين علي بن موسى بن طاوس الحلّي (ت:664هـ/1265م) . الذي تلقّى منه إجازةً سنة 609 هـ ، هي التي استفدنا منها تاريخَ حياته . ومحمد بن جعفر بن نُما الحلّي (ت : 645 هـ /1247م) . ويوسف بن علوان الحلّي . ومحمّد بن معدّ الموسوي .

ونُلاحظُ أنّ الأخيريَن منهم كانا من غير ذوي الشأن . إلى درجة أنّنا لم نحظَ بما يُفيد البحثَ عنهما . كما أنّ المصادرَ كافة لا تذكر له مؤلفات . بل أنّنا لم نحظَ بتاريخ وفاته بعد البحث . وذلك بمجموعه ، خلافاً لِما هو مُتوقَّعٌ ممّن حظي بمثل نسبه وسعيه العلمي تلميذاً ، لا بُدّ له من سببٍ من شؤون حياته خفي علينا .

———————

10 ــ علي بن ثابت بن عصيدة السّوراوي

(ح : 633هـ / 1235م)

(1)

ترجم له الحرّ العاملي في (أمل الآمل :163/2) بكلماتٍ معدودات ، فضلاً عن أنّها مُلتبسة جداً . قال : **"فاضلٌ جليلٌ ثقة . يروي العلاّمة عن أبيه [** يعني أبا العلاّمة المُلقّب سديد الدين **] عنه"** ، يعني عن ابنَ ثابت . ويتحصّل من ذلك أنّه أستاذ الشيخ سديد الدين يوسف بن علي والد العلاّمة الحلّي .

أمّا عبد الله أفندي في (رياض العلماء:381/3) فقد نسخ كلام سلفه الحرّ نسخاً ، لم يُغادر منه إلا وصفه إيّاه بـ "فقيه" بدلاً عن "ثقة" . والظاهر أنّ كلمة الأفندي هي الأصحّ . وأنّ كلمة "ثقة" في (أمل الآمل) ، هي من أخطاء النُّسّاخ . لأن التوثيق وعدمه ليس من شأن كتاب الحرّ، وإن يكُن هو من أهل الحديث . كما نُلاحظُ باستغراب أنّ هذا وصفه بـ "السّيّد" ، في مُقابل "الشيخ" أو "الحاجّ" . . . الخ. لغيره . ومن المعلوم أنّ كلمة "السيّد" تختصُّ بالهاشميين ، وهو ليس منهم . والظاهرُ أنّ ذلك من أخطاء النُّسّاخ أيضا .

وما هذا التّدقيق ، في أُمورٍ ليست بذات بال من سيرة الرجل ، إلا في سبيل تصحيح ما في هذين المصدريَن الأساسيين من ضروب نقص الدّقّة ، قد تُضلّل بعضَ الباحثين المُبتدئين . وذلك من وظائف البحث والباحث .

(2)

بالعودة إلى عمود سيرة ابن ثابت ، نجدُ أنّه درس على اثنين من معارف الفقهاء في بلده في ذلك الأوان . هما عربي بن مُسافر العبادي (ح:580هـ/1184م)، الذي عرفنا فيما فات موقعه الهامّ من حِراك الحركة العلميّة في "الحلّة" . ومحمد بن الحسين بن أحمد ابن طحال المقدادي (ت : 580هـ) .

كما يُذكَرُ في سيرته أنّه درس عليه ، بالإضافة إلى سديد الدين ، أحمدُ بن محمد الموصلي . كما أجاز فقيهين حلّيّين ، هما أحمد بن صالح القسّيني وولده محمد بإجازةٍ مؤرّخة بالسنة 633 هـ/ 1235م . منها استفدنا تاريخَ حياته .

وذلك كلّ ما ظفرنا به من سيرته .

———————

11– علي بن فرج السوراوي

(ت : حو : 625هـ/1227م)

(1)

ترجم الحرّ العاملي لشخصين يحملان الاسم نفسه تقريباً . أوّلهما "علي بن الفرج السوراوي" هذا (ورد في المطبوعة هكذا : "السوداوي" . ولعلّه خطأٌ مطبعي) . (أمل الآمل:198/2) . وثانيهما :"علي بن محمد بن الفرج" (نفسه :202/2) . وصف الأول منهما بـ :**"فقيه فاضل . يروي عن العلاّمة** [الحلّي] **عن أبيه عنه"** . والنّصّ نفسه قرأناه وبيّنّاه قبل قليل في الترجمة لسلفه ذكراً علي بن ثابت بن عصيدة . بينما اكتفى في وصف الثاني بـ :**"فاضل جليل"** .

فكأن الحرّ رحمه الله يرتجلُ أوصافَ الاشخاص من عنديّاته بالميسور.

(2)

ذلك الاضطراب عالجه أُستاذُنا الطهراني بدقّته المعهودة في (طبقات أعلام الشيعة ، الأنوار السّاطعة / 108) . بحيث خلُص ، بمساعدة المصادر التي رجع إليها إلى نتائج مفهومة .

فمن ذلك أنه تلميذ ابن شهرآشوب ، محمد بن علي السّروي (ت: 588هـ /1192 م) . وهذا نعرفه من كبار الُمصنّفين . وكتاباه (معالم العُلماء) و (مناقب الاشراف) من الكُتُب الطريفة المُتدَاولَة حتى اليوم . قرأ عليه كتابه (المناقب) وغيرَه من الكُتُب . كما أجاز له رواية جميع مُصنّفاته وقراآته . وكتب له بذلك إجازةً كاملة .

كما أنّ له رواية عن الحسين بن هبة الله السوراوي . كنّا قد أشرنا إليها في الترجمة لهذا ، ضمن عِداد تلاميذه . وهذه المعلومة هي ممّا فات أُستاذَنا ذكره . ربما لعدم الالتفات إليها . وإلا لنفاها كما جرت عليه عادتُه .

لكنّ هذه المعلومة تطرحُ علينا سؤالاً صعباً . هو أنّنا لسنا نعرفُ عن ابن شهراشوب أنّه أقام في "الحلّة" ، بحيث تقوم بينه وبين ابن فرج تلك العلاقة المديدة ، التي تقتضيها قراءة تلك الكُتُب العديدة عليه . وهو إنّما زارها ، حيث أجاز بعض فقهائها (منهم يحيى بن محمد بن الفرج . كما سنذكرُ في الترجمة الآتية له) . فإمّا أنّ معلوماتنا عن ابن شهرآشوب ناقصة نقصاً فاحشاً . وإمّا أنّ ابن فرج التقى بأُستاذه لقاءً ما في غير "الحلّة" . أي أن النقص في المعلومات هو عن التلميذ .

(3)

فيما يعود إلى ما بقي من سيرة الرجل ، نُضيفُ أنّه أُستاذ فقيهين حلّيين ، لسنا نعرفُ عنهما الكثير ، هما الحسين بن جُبير (؟) ومحمد بن أحمد بن صالح القسّيني (ح : 630هـ/1232م) . وأكثر ما عند الطهراني ، وبالتالي عندنا ، من معلومات عن صاحبنا هو ممّا كتبه ابنُ جُبير في مقدّمة كتابه (نُخب المناقب) ، الذي انتخب فيه كتابَ أُستاذه .

فهذا كلّ ما أوصلنا إليه البحث من سيرة ابن فرج .

———

12 ــ أبو الحسن البغدادي السُّورائي البزّاز

(ح: القرن 5 هـ/11 م)

الظاهر أنّ اسمه علي . و"أبو الحسن" إنّما هو كُنيته ، شأن الذين يحملون اسمَ علي غالباً .

ثم أنّه يُلفتنا في تمام اسمه صفة "البزّاز" . قارن ذلك بصفة "الخيّاط" في الترجمة الآنفة لعلي بن يحيى . ما قد يُفهم منه أن من فقهاء "الحلة" يومذاك من كان لا يستنكف من العمل في مهنةٍ يعتاشُ منها . وإن يكُن ذلك على حساب درجة ما ممّا يمنحه لفقهه ، كما نُلاحظ من سيرة الاثنين ، من ضعفٍ في الحضور المعنوي وفي الانتاج تصنيفاً وتدريساً . نُرجّحُ أنّه ناشئٌ من انشغالهم جُزئيّاً بما يقتضيه العمل في مهنتهما .

كما نُلاحظُ أنّ الجمعَ بين موقعٍ ثقافي ومهنة هو من خصوصيّات "الحلّة" . نقرأه ، مثلاً ، في أُنموذج صالح الكوّاز الحلّي . الذي كان شاعراً معروفاً . ولكنّه كان يمتهن صناعة الكيزان الفخّار . ولم يترك مهنته حتى بعد أن بات شاعراً ذا شهرة . (انظر الترجمة له في كتابنا (أعلام الشيعة) . ولعلّ السّرّ في هذه الخصوصيّة هو أنّ شيوع الثقافة بين أهلها حرمَ أصحابها من الصّفة النّخبويّة .

(1)

انفرد بذكره أُستاذُنا الطهراني في (طبقات أعلام الشيعة ، النابس / 8) . ومعلومٌ أنّ هذا الجزء من كتابه هو في أعلام القرن الخامس (تمام اسم الكتاب : النّابس في القرن الخامس) . وإنّما استفاد تاريخ حياته على نحو التقريب ، بحيث ترجم له في هذا الجزء من كتابه ، من أنّ أبا الحسن أُستاذٌ أو شيخٌ للنّجاشي أحمد بن علي (372 – 450هـ /885–1058م) مُصنّف كتاب (الرّجال) السّائر . ومن الغني عن البيان للعارف ، أنّ تتلمُذ هذا المُحدّث والرّجالي له ، يدلُّ ضمنا على أنّه

كان من معارف مَن يُستفادُ منهم . على الرُّغم ممّا وصف به في تمام اسمه بـ "البزّاز" ، التي يوصف بها مَن يمتهنون بيع الأقمشة والمنسوجات .

(2)

يروي عن حسن بن يزيد السورائي . وهذا كلُّ ما أفادنا الأُستاذ من سيرته ، مُعتذراً بأنّه **"لم أجِد لهما** [يعني لأبي الحسن وأُستاذه حسن] **ترجمة في كُتُب الاصحاب"** .

وفي ذلك عذرٌ له ، وضمناً لنا ، في أنّنا لم نذكر من سيرته سوى ما قُلناه أعلاه .

———————

13 ــ يحي بن محمد بن يحي بن الفرج السوراوي

(ح ، حو:620 هـ/1223م)

من كبار مشايخ "الحلّة" في زمانه .

قال غير واحدٍ من الباحثين أنّه من خاصّة تلاميذ الحسين بن هبة الله السوراي (مثلاً ، موسوعة طبقات الفقهاء:306/7) حيث قيل : **"اختصّ بالفقيه الحسين بن هبة الله السوراوي"**. وهذا يعني لنا أنّ يحيى هو من الذين جذبتهم شخصيّة أُستاذه والحركة الباهرة التي قادها ذلك الرّائد الكبيربجدارة في المدينة الصّاعدة . وبذلك كان من أسباب نهضتها .

قرأ على شيخه الحسين كتاب (تهذيب الأحكام) للشيخ الطوسي . كما أجازه برواية جميع مصنفات الشيخ الطوسي والشيخ المفيد والسيد المرتضى .

ورد ذكره في عِداد تلاميذ الحسين في إجازة الشيخ محمد سبط الشهيد الثاني للمولى محمد أمين الاسترآبادي . كما ذُكر ذلك في آخر الخلاصة للعلامة . وأتينا آنفاً على ذكره آنفاً في هذا الكتاب بشيءٍ من التفصيل ، بوصفه من عِداد تلاميذ الحسين ، وذلك ضمن الترجمة لأُستاذه .

التقى الحافظ ابن شهرآشوب المازندراني (ت:588هـ/1192م) عندما زار هذا "الحلّة" فأجازه بكتاب (معالم العلماء) .

وله ذكرٌ في كتاب (الخلاصة) للعلاّمة الحلّي . وانظر (طبقات أعلام الشيعة :206/3) . و (موسوعة طبقات الفقهاء : 7 / 166) . حيث يذكره ضمن الترجمة لعلي بن الفرج السوراوي .

من تلاميذه جمعٌ من كبار الفقهاء في "الحلّة" في ذلك الأوان . نذكرُ منهم : سديد الدين يوسف بن المُطهّر والد العلاّمة الحلّي (ح:648هـ/1250م) . قرأ عليه كتاب (تهذيب الأحكام) للشيخ الطوسي ، والمحقّق الحلّي جعفر بن الحسن بن سعيد

(ت : 676هـ / 1277 م) والسيّد عبد الحميد بن فخار الدين بن معدّ الموسوي (ت :666هـ / 1267م) ، وأحمد بن موسى بن طاوس ، والشيخ علي بن سعادة ، وعبد الحميد بن فخار الموسوي .

فمن سيرته الحافلة بإسماءٍ كبيرة ، بين أُستاذه الكبير وتلاميذه ذوي العدد الجمّ والمكانة الرفيعة لبعضهم ، نعرفُ أنّ صاحبنا عاش حياةً حافلةً في الوسط الحلّي .

ومع ذلك ، فإن كافّة المصادر التي رجعنا إليها تضنُّ علينا بتاريخ وفاته على الأقلّ . على الرّغم من حضوره القويّ في "الحلّة" أثناء حياته . ولولا مُقارنة سيرته بسِيَر تلاميذه إجمالاً ، لَما تسنّى لنا أن نُقرن اسمَه في العنوان أعلاه بذلك التاريخ التقريبي لحياته .

---

14 ـ الحسين بن محمد بن أبي الفضل السُّوراوي

(ح : 704 هـ/ 1304 م)

له ذكرٌ مضطربٌ في مصادر قديمة وحديثة .

أولهم ابن الفوطي في مجمع الآداب : 1 /175 . حيث سمّاه : عز الدين أبو عبد الله الحسين بن محمد بن علي أبي الفضل العلوي الحسيني **السّوراوي** الفقيه . ثم أورد له نصاً نثريّاً ركيكاً . يبدو أنه جزء من رسالة خطّها . ضمّنها مديحاً للمرسلة إليه .

كما يذكر الطهراني في (طبقات أعلام الشيعة ، الحقائق الراهنة / 58) الحسين بن محمد بن علي شرف الدين العلوي الحسيني **الطوسي** . نظن ظنّاً يُتاخم اليقين ، أنه هو نفسه المترجَم له . وأنّ "الطوسي" ليس إلا تحريفاً لـ (السوراوي) ، كما هو مذكور في كل المصادرالأُخرى . ثم يقول إنه من تلاميذ العلاّمة الحلّي. أجازه في"**سلخ ذي الحجة** 704 " على ظهر نسخةٍ من كتاب (الإرشاد) للمُجيز. والنسخة ، دائماً حسب قوله ، باقية . وعليها خط المُجيز، رآها في إحدى المكتبات الخاصّة في "طهران" .

كما أتى علي الخاقاني في (البابليّات : 4 / 253) على ذكره . حيث لقّبه بـ "عميد الدين السوراوي" . وأنّه "أبو تغلب عميد الدين بن أبي عبد الله الحسين بن محمد بن أبي الفضل العلوي السوراوي . من أُدباء القرن السابع الهجري" . ثم أورد نصّا زعم أنّه عن الفوطي في (مجمع الآداب) حيث قال إنه وصفه بأنّه "كان من الأُدباء الأكابر" . "قال عنه ابن الفوطي في مجمع الآداب كان من الأدباء الأكابر". وهو مُختلف عمّا في مصدره المزعوم ، حيث رأينا أنه وصفه هناك بـ "الفقيه" . وهو الوصفُ الأنسب به ، كما عرفنا ممّا هو ثابتٌ من سيرته .

---

15 ــ الحسين بن أحمد السوراوي

(ح : 677هـ / 1278م)

ذكره الحر العاملي في (أمل الآمل : 2 / 90) فوصفه بـ **"كان عالماً فاضلاً جليلاً"** .

ونحن نعرف أن الحرّ يُطلق هذه الأوصاف ومثلها ارتجالاً ، حين لا يملك معلومات كافية عن الذين يترجم لهم . فيذكرهم بما يملك من انطباعٍ عامٍ لديه عنهم ، بستقيه من الوسط الثقافي .

لكنّنا رأيناه يُتابع بـقوله : **"روى عنه السيد رضي الدين علي بن موسى إبن طاوس"** (ت : 664هـ / 1265م) . على أنّ من المعلوم أنّ مُجرّد الرواية ليس يعني أمراً مُحدّداً . أي أنّه لا يدلُّ بالضرورة على أنّ ابن طاوس قد تتلمذ عليه . لعلمنا بغرام هذا بمُراكمة الروايات عن المعارف .

أُستاذنا الطهراني في (طبقات أعلام الشيعة ، الأنوار الساطعة / 45) يُضبفُ إضافةً هامةً على ما أتانا به سلفه الحر . حيث ينقلُ عن مصدره أنّ **"الشيخ الصالح حسين بن أحمد السوراوي"** يروي إجازةً عن الشيخ محمد بن القاسم الطبري بإجازةٍ تاريخها سنة 677 هـ . ومن ذلك نعرف أنّه ، أي الحسين ، من تلاميذ عماد الدين الطبري ، صاحبُ كتاب (بشارة المصطفى لشيعة المُرتضى) . وهذا من تلاميذ أبي علي الطوسي في "مشهد علي" .

وذلك كلّ ما نعرفه عنه .

---

16 ــ أحمد بن الحسين السُّوراوي

عُرف بابن متويّة

(ح . القرن 4 هـ / 9 م (!)

والكُنية "ابن متويّة" غير عربيّة ، كما هو واضح . وقد أخّرنا ذكره لأنّه ظاهرةٌ خاصة بنفسه . تختلف عن جميع مَن عرفناهم من السورويين في "الحلّة" .

أمّا تاريخ حياته الإجمالي فقد قلّدنا فيه أُستاذنا الطهراني . حيث ترجم له بثلاثة أسطر ثمينة في كتابه (طبقات أعلام الشيعة ، نوابغ الرُّواة في رابعة المئات / 27) . ما يعني أنّ الرجل عنده قد عاش في القرن الرابع للهجرة .

لكنّنا نُلاحظُ عليه هنا أمريَن اثنين ، هما :

ــ الأول : أنّه لم يذكر لنا مستنده إلى التاريخ الإجمالي لحياة المُترجم له .

ــ الثاني : أنّه إن صحّ ذلك ، فهو يدلُّ ضمناً على أنّ ابن متويّة هو أوّلُ سوراويّ حقّق اتصالاً بـ "الحلّة" . أي قبل الرّائد هبة الله وولديه بزُهاء قرنٍ على الأقلّ . وهي نتيجةٌ هامّةٌ جداً . وإن تكن موقوفةٌ على صحّة قول صاحبها ، وهو غير صحيحٍ بالتأكيد ، الأمرُ الذي يبدو أنّ الأُستاذ قد مال إليه ، لضعف معرفته بمواصفات المرحلة التاريخيّة ، التي عاش وعمل فيها السوراويون في "الحلّة" . وقد لاحظنا عليه ذلك غير مرّة . ذلك لِما هو ثابتٌ من أنّ الأميرصدقة بن منصور بن دبيس بن علي المَزيدي قد أتمّ بناءَ "الحلّة " سنة 494هـ/1101م . أي أنّ الأخذ بقول أُستاذنا ، لجهة تاريخ حياة ابن متويّة ، يقتضي أنّه عاش فيها قبل بنائها (!) . لكنّه لا ينفي أنّه عاش فيها في فترةٍ سابقةً على أُولئك الرُّوّاد أيّاً تكُن . الأمرُ الذي ستؤيّده سيرةُ حياته كما سنعرفها . ولعلّ ذلك هو الذي قاد الأستاذ إلى ذلك الخطأ الفظيع .

(1)

إنّ مُجمَل المُلابسات ، التي تُحيط بما عن هذا السُّوراوي (المُبكّر) (؟)

في "الحلّة" ، ابتداءً من اسمه الإسلامي (أحمد بن الحسين) ، إلى كنيته السريانيّة (ابن متويّة) ، الناشئة من اسمه قبل الإسلام . إلى إتقانه اللغة التي ستُسمّى فيما بعد بـ "السريانيّة" والعمل على بعض تراثها ، كما سنعرف . ــ هذه كلّها تدلّ على أنّه تحوّل إلى سُكنى "الحلّة" بعد أن صلُب عودُه واشتدّ دراسةً وتحصيلاً وفق تراثه الشّخصي . ولم يعُد بحاجةٍ إلى المزيد ، ممّا سيُحرّك الرّوّاد من السوراويين من بعد . ثم انشغل به أخلافُهم ، بانصرافهم التّام إلى دراسة العلومِ الدينيّةِ الإسلاميّة . لكنّه على الأقلّ ، تسمّى باسمٍ إسلاميّ إشعاراً بأنّه اتخذ لنفسه هُويّةً جديدة . شأن الآتين من قومه. لكنّه احتفظ بكُنيته السوريانيّة . إلى جانب العمل على تراث أسلافه . ومن ذلك **"نقل الصحف الإدريسيّة من السوريّة إلى العربيّة"** (آغا بزرك / نفسه) . مع ضرورة ملاحظة أنّ كلمة "السُّوريّة" في النّصّ ليست تعني النسبة إلى "سوريّا" المنطقة ثم الدولة ، كما هو شائعٌ ذائع . بل إلى "سورا" البلد .

كلُّ ذلك يدلُّ على ذكاءٍ فائق لدى ابن متويّة . ويجعلُ منه ظاهرةً ذات امتياز ، في الحركة االتي ستعلقُ بين كافّة السورانيين ، الذين سيتحولون إلى سُكنى"الحلّة". وبذلك انخلعوا جذريّا من هويّتهم ، باتجاه هُويّةٍ جديدة . بات القارئُ على خُبرٍكافٍ بها . لايأخذ من ذكائه سوى أنّه لم يلتفت إلى مثل ما التفت إليه أولئك الرُّوّاد ، حيت شدّوا الرّحال إلى "مشهد علي" ، والتتلمُذ على شيخه . واكتفى بنقل تلك الصَّحُف إلى العربيّة . الأمر الذي يدلُّ على تعلّقه البالغ بهويّته السوريانيّة .

(2)

ونذكرُ أنّ "الصُّحف الإدريسيّة" ، التي نقلها ابنُ متويّة إلى العربيّة ، هي من أثر الهُويّة النّصرانيّة ، التي كان عليها سكان المنطقة التي نشأت فيها مدينة "الحلّة". ثم أنكرتها وتنكّرت لها المسيحيّة الطّارئة . لأنّها منسوبةٌ إلى إدريس (النبي) ، التي لاتضعه ضمن قائمة المُبشّرين بالمسيح وبالخلاص المسيحي .

أمّا تلك "الصُّحف" ، فهي عبارةٌ عن مُنشآتٍ بلغة المنطقة "السُّوريّة" /

حسب النّصّ . وهي السّوريانيّة ، في مُناجاة الخالق سبحانه . نقل ابنُ متويّة نصّها إلى العربيّة . وذلك يشي بتعلّقه الباقي بالتراث الثقافي الذي ظلّ ينتمي إليه . ومع ذلك فإنّ الوسط الحلّي تلقّاها بأحسن القبول ، لِما فيها من عذوبةٍ وجمال وروحانيّة . ومنه تسلّلت إلى التّراث الشيعي إجمالاٍ ، بحيث أدرجها المجلسي بنصّها ضمن كتاب الدعاء من كتابه (بحار الأنوار) (طبقات أعلام الشيعة / أيضاً) . وهذا كلّ ما هو مذكورٌ من تراثه .

وحسبَ أُستاذنا في المصدر نفسه ، فإن نُسخةً خطّيّةً منها في "المكتبة الرّضويّة" برقم 14961 ، كُتبت سنة 1247هـ/1831م . ما يدلُّ على أنّ الاهتمام بها لم ينفكّ بعد قرون من ترجمتها وانتشارها .

(3)

خلاصة القول في هذا السُّوراويّ الإشكالي . أنّه نزل "الحلّة" فيمَن نزلها من السورانيين ، وأن نزوله كان مُبكّراً بالقياس إليهم . كما أنّه هو كان ، فيما يبدو ، ناضجاً مُكتفياً ثقافيّاً من التراث السوريانى . فحاول أن يُدخل عناصر من ثقافته في النسيج الثقافي الفقير للمدينة الجديدة . وفي هذا السبيل ، فيما يبدو ، قام بترجمة نصٍّ سريانيّ إلى العربيّة ، انتخبه انتخاباً ذكيّاً . بحيث لا يُصادم الثابت العقائدي لسكانها . لكن أعمال الروّاد هبة الله وابنيَه ، خصوصاً الحسين منهما ، جرفت مشروعه نهائيّاً .

———

17 ــ عبد الحميد بن واسع السوراوي الحلّي

عُرف بابن تُرك

(القرن 7هـ / 13م تخميناً)

ما من ذكرٍ لتاريخ حياته . والتاريخ التقريبي الوارد في العنوان مُستفادٌ تخميناً من تاريخ وفاة صاحب المصدر الوحيد المُعاصر له الذي أخذنا عنه .

ذلك أنّ المصدر الوحيد الذي أتى على ذكره باختصار هو ما عن علي بن يوسف القفطي (ت : 646هـ / 1248م) في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء / 155) حيث وصفه بأنّه "**رجلٌ حاسبٌ ، عالمٌ بصناعة الحساب ، مُقدّمٌ فيها ، مذكور بين أهلها . ويُعرَفُ بابن تُرك الحلّي**" (في نشرتنا السيئة للكتاب : "الجيلي" بدلاً عن "الحلّي" . وهو تصحيفٌ جليّ) .

وما من ذكرٍ لمُناسبة كنيته الغريبة .

ثم أضاف :"**له في الحساب تصانيف مشهورةٌ مُستعملَة . منها كتاب الجامع في الحساب يحتوي على ستة كُتُب ، كتاب نوادر الحساب وخواصّ الاعداد**" . وهو نصٌّ جليٌّ بغنى عن التعليق .

وعلى كلّ حال فإنّ الانتشار الواسع في "الحلّة" لمُصنّفَات هذا الـ"**عالِم بصناعة الحساب**". والمكانة التي اكتسبها بين أهلها ، بحيث بات مذكوراً بينهم لعلمه الجمّ في علوم الحساب ، ليدلُّ على أنّ "الحلّة" قد استفادت دون تردّد من التراث المُتنوّع الذي حمله السورانيّون معهم إلى مدينتهم الناهضة . على الرّغم ممّا عرفناه ، من أنّ الطليعة من أهلها ، التي أطلقت الحراك النهضوي ، قد صرفت عامّة جهدها إلى العلوم ذات الصفة الدينيّة .

وهذه لمسةٌ بارعة . تُضافُ إلى رصيد "الحلّة" البهيّ .

———————

في ختام تلك السِّيَر الحافلة نذكر اسمي علميَن سورانيين اثنين . لم نظفر ، بعد البحث ، بما يكفي لتركيب سيرةٍ لهما . هما :

18 ــ الحسن بن يزيد السوراني .

(ح : القرن 5 للهجرة / 11 للميلاد) .

ذكره الطهراني في (طبقات أعلام الشيعة ، النّابس / 8) فقال : **"شيخٌ لأبي الحسن البغدادي السّيوري . وهذا من مشايخ النجاشي . لاذكرَ له في كُتُب الرجال"**. والنجاشي توفي 450هـ / 1058م . فمن هذا عرفنا التاريخ الإجمالي لحياة المُترجَم له .

19 ــ محمد السوراوي

(ح : القرن 6 للهجرة / 12 للميلاد)

هكذا ورد اسمه مُجرّداً لدى الطهراني في (طبقات أعلام الشيعة ، الأنوار السّاطعة / 158 ـ 59) مع تلقيبه بـ "نجيب الدين" . قائلاً إنّه يروي عن ابن شهراشوب المازندراني (ت : 558 هـ / 1192م) وعن الحسين بن هبة الله بن رطبة (ت : 579 هـ/ 1183 م) . ويروي عنه أحمد بن علي بن سعادة البحراني (؟) .

والمعلومات عنه مُضطربةٌ جداً . استوعب مصدرنا القولَ عليها فيما بقي ممّا ذكره من سيرته . ممّا لا نجدُ فائدةً للقارئ من ذكره .

نتائـج

(1)

ممّا لاريب فيه أنّ الفضلَ الأول في نهضة "الحلّة" هو في نمط شخصيّة وسياسة بُناتها وأُمرائها الأفذاذ ، المُتهاودة والمُسالمة ، من بني مزيد . وهي السياسة التي كان من قوة تأثيرها أنّه ، ما أن تمّ بناؤها ، حتى عمرت بسرعةٍ مدهشة بالسكان . الذين انهالوا عليها من مواطنهم الأصليّة القريبة والبعيدة .

ثمّ أنّهم ، وياللغرابة ، تخلّوا بجمعهم بكامل الطّوعيّة عن بعض خصوصيّاتهم الدينيّة والمذهبيّة والثقافيّة ، لمصلحة هُويّةٍ جامعة ، عنوانُها التّشيُّع الإمامي وحده ، دون شذوذ .

الخفاجيّون والأكراد ، بل وحتى المزيديّون أنفسهم ، وكلّهم كانوا شافعيّة أو أحناف ، تحوّلوا إلى مذهب الأكثريّة من بني أسد الكوفيين الشيعة . والسورانيّون تركوا النّصرانيّة إلى الإسلام على المذهب نفسه ، بل وليغدوا جنوده المُجنّدة . وتلك ظاهرةٌ ، بمواصفاتها الخاصّة ، فريدة . لسنا نعرفُ ثانياً لها ولا شبيها . من دونها ما كان من المُمكن إطلاقاً أن تتخذ المدينةُ الطّريّة العُود طريقها اللاحب ، باتجاه نهضتها القادمة عن قريب .

(2)

الفضلُ ثانياً هو للرُّواد الثلاثة الأُوَل : هبة الله بن رطبة السّوراوي وابنيه الحسن والحسين . يوم رأيناهم وقد اتخذوا بادرتهم المُدهشة ، بأن قصدوا "مشهد علي" ، للانضمام إلى الحلقة الدّراسيّة الوحيدة العاملة يومذاك في كلّ المنطقة العربيّة ، حولَ شيخها أبي علي الحسن الطوسي ، ليدرسوا عليه . وتلك خطوةٌ اتخذوها ، ولا ريب ، عن وعي وقصد . ثم ما أن رجعوا إلى "الحلّة"

والحقيقةُ أنّ نفسَ المُتأمّل العارف لَتمتلئُ عجباً من أن هذه البادرة ، التي تدلُّ مُلابستُها على أنّها كانت بدوافع ذاتيّةً ، قد حصلت على أيدي هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام بالأمس القريب .

أعتقد أن لا مناص لنا هنا من الاعتراف بأن هؤلاء ، إذ وهبوا حياتهم الحاضرة والآتية إلى العمل ، بكامل الهمّة والخلوص ، على نمطٍ ثقافي ، كانوا بالأمس القريب بعيدين عنه كلَّ البُعد ، إنّما كانوا يُمثّلون العقل السّرياني ، الوارث للحضارات البهيّة الغايرة ، في انفتاحه ، وفي قُدرته على التحليل والرؤية المُستقبلة ، وأيضاً في اكتشاف الحلول المُناسبة لأزمتهم عن طريق حلّ أزمةٍ قائمة في المجتمع الذي انضمّوا إليه . وبذلك نجحوا في الانماج اندماجاً تامّاً في مجتمع المدينة الجديدة . بل وباتوا أساتذةَ نُخبتها ورموزها القادمة .

(3)

ثمّة في تلك الحركة الواسعة ، التي يُمثّلها أولئك التسعة عشر من أعلام السورانيّين في "الحلّة" ، أُنموذجان اثنان رئيسان :

الأُنموذج الأوّل نقرأه في شخصيّتَي الحسن والحسين ابنا هبة الله بن رطبة . بوصفهما اللذين رأيناهما ينكبّان ، بمُجرّد عودتهما من "مشهد علي" إلى "الحلّة" ، بعد أن اكتفيا من شيخه ، ــ على العمل على تدريس عددٍ كبيرٍ من التلاميذ وما يُناسبه .

والحقيقة أنّ الاخوين ، خصوصاً الحسين منهما ، يعودُ إليهما كلّ الفضل في تحويل وجه المدينة باتجاه العمل الذي دخلت به التاريخ . بل نقول إنّ كل الانجازات الجليلة الآتية لمجتمع المدينة ، على أيدي تلاميذهما ، وكل الآتين من بعدهما ، هي ، على أهميّتها البالغة ، مُجرّد تفاصيل . نقرأها ونُنوّه بها . لكنّ علينا أن ننظر من طرف إلى المنبع الثّرّ الذي نهلت منه .

الانموذج الثاني نقرأه في أحمد بن الحسين السّوراوي ، ابن متويّة . الذي عمل بعكس ذينك البطليَن . وذلك بأن عمل بذكاءٍ وعناد على محاولة اختراق النّمط الثقافي الأصيل والثابت لـ "الحلّة" ، لمصلحة زجّ ثقافته الخاصّة السريانيّة العريقة في العقل والإرث الكامن عميقاً في الثقافة الحامعة للمدينة . بينما رأينا ابنا هبة الله يتخليان عن موروثهما الثقافي الشخصي ، لمصلحة الهُويّة الذّأتيّة الجامعة والأصيلة للمدينة نفسها .

وطبعاً فشل ابنُ متويّة فشلاً ذريعاً في مسعاه الخيالي . بينما تابعت "الحلّة" سبيلها باتجاه مستقبلها المجيد الآتي .

———